

الباب الثاني

في الحياة الاجتماعية

تمهيد

ان هذا الباب يتناول وصف مركز كل من الرجل والمرأة وحياة الاسرة وعاداتها ، ووصف ما كان يقوم عليه المجتمع من تقاليد عصبية متنوعة ، وخطورة الحج ومناسكه ومواسمه والأشهر الحرم وما كان لذلك من تقاليد وما كان لهذه التقاليد من اثر في حياة العرب الاجتماعية في عصر النبي (ص) وبيئته ، وفي نهضتهم ونشاطهم، وعقائدهم ومواقفهم من الدعوة الاسلامية وما كان جارياً عندهم في أمر الرق والرقيق ، ثم ما كان عليه أمر القضاء والطرائق التي كانوا يجرون عليها في حل مشاكلهم وتسوية خلافاتهم ، وما كان في مدنهم من سلطات حكومية وقبائلهم من سلطات مشيخية ، وما كان من عاداتهم في الحرب وعدتها والسلم ومواثيقها .

ويتألف الباب من اربعة فصول :

الفصل الاول : في حياة الأسرة

الفصل الثاني : « العصبية الاجتماعية

الفصل الثالث : « في الحج والأشهر الحرم

الفصل الرابع : « نظام الحكم والطبقات .

الفصل الثاني

في حياة المرأة

الرجل والمرأة — مركز الرجل الممتاز — استدلال قرآنية — هوان مركز المرأة والاجحاف بها — استدلال قرآنية — كراهية ولادة البنات — استدراك وصور تدل على ما كان لبعض النساء من بروز وشخصية — دلالة شمول الدعوة الإسلامية للجنسين شمولاً متساوياً — عادات وتقاليد متنوعة — الطلاق — الظهار — الأيلاء — المرأة في حالة الحيض — حداد الأرملة — فكاح أرملة الأب من قبل ابنه لغيرها — جمع الاختين في عصمة واحدة — عدم تحديد عدد الزوجات — التسري بالاماء بلا قيد — نكاح المتعة — التخادن والمسافحة — دلالة ذكر الاماء والكتايبات في صددتها — البغاء — الدخول على بعض والسحر عند بعض بدون تكلف — بروز المرأة بزيتها — التفرق في السكنى — التبني — الاسترضاع — الأثارة في الفطام — سن الرشد — قتل الاولاد ووأد البنات — حالة التوارث — حالة الآباء — حالة اليتامى

الرجل والمرأة

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً في الرجل والمرأة . منها ما هو عام ومنها ما يتعلق بالتشريع والتكاليف والاصلاحات الاسلامية ، ومن كلا النوعين يمكن ان نقبس صورة ما للرجل والمرأة ومركز كل منهما في عصر النبي (ص) ويثبته قبل البعثة .

فاولاً : من فحوى الآيات العامة التي ذكر فيها الرجل يمكن ان يستدل على انه كان يتمتع بالمركز الممتاز ، فهو قوام الاسرة وربها ، المسئول عن حياتها ورزقها وشؤونها ، وهو المكلف بالحرب والدفاع ، والمطالب بالثأر والغرامات ، وهو المخاطب في المسئوليات الاجتماعية المتنوعة ، وهو صاحب الرأي والكلمة النافذة والمظهر البارز ، وعلى ان المرأة من حيث العموم كانت تابعة للرجل ومنسوبة اليه ،

وثبتت حمايته ومسئوليته ، ومسيرة بأمره ، وأنه هو الذي يمثلها في مصالحها .
 وإذا دققنا في الآيات التي فيها دعوة أو خطاب ، أو جدل أو مناظرة ، أو إنذار
 أو وعد أو وعيد ، أو التي فيها حكاية عن مواقف الكفار وحجاجهم وأقوالهم ،
 وما كان بينهم وبين المسلمين من شؤون وأحداث وحروب ، أو التي فيها قصص
 الأمم الغابرة وأنبيائها . بل والتي فيها خطاب للمسلمين في التشريع والتكليف أو
 التذية والتحذير ، أو الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، أو حكاية لما قالوا وفعلوا
 ويقولون ويفعلون لو وجدناها قد صيغت في الإعم الأغلِب بصيغة المذكر مفرداً وجمعاً ،
 ولو وجدنا أكثرها إنما قصد به في الحقيقة مخاطبة الرجال والحكاية عنهم .

وليس من الضروري ولا من الممكن استعراض آيات القرآن جميعها طبعاً وهي
 في الشؤون والأغراض التي ذكرناها ، كما إن القارىء إذا ما رجع إلى القرآن
 فإنه يلمس هذه الحقيقة في كل سورة منه بل في كل فصل من سوره ، ولذلك
 فإننا سنكتفي بإيراد بعض الآيات التي فيها ذكر « الرجل » من المرأة أو ذكر ما كان
 له من خصائص ، حيث يمكن أن يكون لهذه الآيات دلالة صريحة وقوية ما كان
 للرجل في ذهنية المجتمع إذ ذاك من مركز ومظهر لاسيما وقد اختص بالذكر في
 شؤون خطيرة كما ترى في ما يلي :

١ - ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ...

البقرة ٢٢٨

٢ - والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً
 فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن بالمعروف ... البقرة ٢٣٤

٣ - وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ... البقرة ٢٣٣

٤ - للذين يؤولون من نساءهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم .

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ... البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧

٥ - وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف

ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ... البقرة ٢٣٧

٦ - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب

والفضة والحيل المسومة والأنعام والحرث ... آل عمران ٤٤

٧ - وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء
مثنى وثلاث ورباع فان خفتن أن لا تعدلوا فواحدة أو مملكت أيمانكم ذلك أدنى
أن لا تعولوا واتوا النساء صدقاتهن نحلة ... النساء ٣ - ٤

٨ - الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من
أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن
فمظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ...
النساء ٣٤

٩ - وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء
والولدان ... النساء ٧٤

١٠ - وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون.
ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ... الانعام ٨ - ٩

١١ - وبينهما حجاب وعلى الاعراف (١) رجال يعرفون كلا بسيماهم ...
الاعراف ٤٦

١٢ - ونادى أصحاب الاعراف رجلا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم
وما كنتم تستكبرون ... الاعراف ٤٨

١٣ - وضرب الله مثلا رجلين أحدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كل على
مولاه أين ما يوجهه لا يأتى بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط
مستقيم ... النحل ٧٦

١٤ - وما ارسلنا من قبلك الا رجلا نوحى اليهم من اهل القرى ...
يوسف ١٠٩

١٥ - رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة ... النور ٣٧

١٦ - ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي

(١) رجال الاعراف ملائكة على أرجح التأويلات فذكروا كرجال

نظاهروث منهن أمهاتكم . . .

الأحزاب ٤

١٧ - « وقالوا مالنا لازي رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . . . » صاد ٦٢

١٨ - « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم . . . » الزخرف ٣١

١٩ - « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا

عليهن الطلاق ٦

٢٠ - « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم

فاحذروهم التغابن ١٤

٢١ - « وإنه كان رجال من الانس يعوزون رجال من الجن فزادوهم

رهقاً الجن ٦

ففي هذه الآيات التي هي قلب من كثرة يظهر مركز الرجل وميزاته، واختصاصه بالمسؤولية والحرب والمهات العظيمة ، والأنفاق والميمنة على زوجته وعلى شؤون الأسرة وبروزه بصورة واضحة ؛ بل ان في آية آل عمران (١٤) قد عبر عن الرجال بكلمة « الناس » كأنما هم الدنيا ، وان النساء والبنين والاموال والزينة والمتع الاخرى انما هي مطالبه ورغباته ومطمح انظاره ومطامعه .

وهذا الأسلوب هو بطبيعة الحال ترديد لما كان واقعاً مألوفاً في المجتمع الذي نزل فيه القرآن وخوطب به أهله بلسانهم لأول مرة ، وما احتوته التشريعات النسائية والعائلية الإسلامية من اصلاح واتخذته من حياطة لحقوق المرأة المتنوعة حالاتها انما توخى فيها تعديل كثير مما كان فيه حيف وضير وارهاق واعنات ونكران حق المرأة مما سنشير اليه بعد هذا الكلام .

- ٢ -

وثانياً في القرآن آيات عديدة يمكن ان تلهم ما كانت عليه المرأة من الوجهة الحقوقية والاقتصادية والزوجية ومن اضطهاد وسوء معاملة وارهاق ، وكيف كانت تؤكل حقوقها ، وتبتز أموالها وتحرم من ارثها ويغنى عليها في حرياتهما وفي متنوع ظروفها الزوجية خاصة ننقل منها مايلي :

١ - « الطلاق مرتان فامسك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم أن

تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ... البقرة ٢٢٩

٢- «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا

تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف البقرة ٢٣١/٢٣٢

٣- « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرههاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً النساء ١٩ - ٢٠

٤- « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وإن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً . وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً فلا جناح عليهما إن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير واحضرت النفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً النساء ١٢٧/١٢٨

٥- « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً النساء ٧

٦- « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً الاحزاب ٤٩

٧- « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم إن امهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرأ من القول وزوراً المجادلة ١-٢

٨ - « يا ايها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن بعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً. واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الاعمال اجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً. ذلك امر الله انزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً. أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن اجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعازتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً الطلاق ١ - ٧

ويمحسن ان يسلك في هذه السلسلة آيات البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧ التي أشارت ايلاء الازواج زوجانهم وما سبقتهما من آيات نهى عن الضرر وأمر بتقوى الله والبر والاصلاح وتحذير عن جعل الله عرضة للايمان ووسيلة للضرر والحيف ٢٢٤ - ٢٢٥

فهذه الآيات جميعها انما احتوت ما احتوته من اوامر ونواه وتشريعات بسبيل اصلاح ما كان عليه امر المرأة من غبن وحيف وتعرض للعنت والارهاق والابتزاز كما قلنا، وبالتالي فانها قد انطوت على صور كثيرة مما كانت عليه قبل نزولها وبالاحرى قبل البعثة من مثل هذه الصور المكروهة . ويلفت النظر في ما احتوته الآيات عامة وآيات سورة الطلاق خاصة من التوكيد والتشديد والتنبية على تقوى الله الامر الذي يدل على ان المرأة في ظروف الطلاق والمعاملات الزوجية كانت عرضة لشديد البغي ، وكان هذا من الامور الراسخة والشائعة .

وفي سورة الانعام آية صريحة الدلالة على ما كان من غبن للمرأة وانتقاص من شأنها وحققها واتخاذ التقاليد الدينية وسيلة الى ذلك وهي :

وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . . . ١٣٥

وآيات المواريث مما يلهم ما كان يقع على حق المرأة فيه من هضم ونكرات وتلاعب ؛ في أصله حيناً بحيث كان يدعى عصبة الميت انهم هم الذين ينحصر فيهم الارث لانهم هم المحاربون الغارمون ، وفي مقداره حيناً على ما ذكرته الروايات ؛ فجاءت الآية السابعة من سورة النساء وقد نقلناها قبل قليل اولاً لتثبيت هذا الحق من حيث الأصل ؛ ثم جاءت آيات المواريث ١١-١٢ التي نقلنا اكثرها في بحث الاعداد والحساب والتي انتهت بتشديد على وجوب التزامها .

وتنبه خاصة على ارث الكلالة ، فقد كان ارث الميت الذي لانسل له وخاصة لانسل له من الذكور ولا أبوان له يصرف الى اخوته وعصبته وينكر على الاخوات فيه حقهن ، وهذا يفهم من اهتمام القرآن لتثبيت هذا الحق في آية المواريث ١٢ وفي آية اخرى من سورة النساء وهي :

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلها الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالاً ونساءً فللذكور مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا . . . ١٧٦



ثالثاً ولقد وردت في القرآن آيات تحكي ما كان لولادة البنات من كراهية ، وتندد بالكفار على نسبتهم البنات الى الله بينما المفضل عندهم البنون ، وبينما المعقول ان يكون لله ما هو الافضل ، وتذكر وأدهم للبنات كما ترى في الآيات التالية :

١ — « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر أحدهم بالاتي ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء ما يحكون . . . النحل ٥٧/٥٩

٢ — « واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إنانا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون . . . الزخرف ١٧-١٩
٣ - « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . ام خلقنا الملائكة إناثاً وهم
شاهدون . . . الصافات ١٤٩-١٥٠

٤ - « ألكم الذكر وله الاثني . تلك اذا قسمة ضيزى . . . النجم ٢١-٢٢
٥ - « واذا المؤودة سئلت . بأي ذنب قتلت . . . التكوير ٨-٩
فهذه الآيات تدل على ما كان للاثني بوجه عام من مركز هين على الرجل ، وعلى ما كان
لولادتها من أثر سيء في نفسه ، ولو كان ذلك لاسباب خارجة عن ذات المرأة كما ترجح
بل نجزم مثل خوف الآباء من العار والمتاعب وتفضيل الذكر لانه اكثر غناء في
الحرب ومواقف العصبية وكسب الرزق .
وفي آية الزخرف (١٨) خاصة اشارة الى سبب يمت الى ما قلناه حيث تشير
الى ما كان من عدم غنائها وابانتها في مواقف القول والخصومة .

- ٤ -

واذا كان هذا الذي قلناه عن مركز الرجل والمرأة هو الواقع والمظهر العام ،
فلا يعني انه لم يكن للمرأة شخصية ما في المجتمع العربي وفي عصر النبي (ص) وبيئته
بنوع خاص . وفي القرآن آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على انه كان لها
بعض الشأن .

فالاولاً : هناك آيات تشير الى المناققات والمشاركات كما تشير الى المناققين .
والمشاركين ، وتوعدهن كما توعدهم ، وتذكر اعمالهن وتضامنهن في النفاق
والشرك وصد مع الرجال ؛ وهذا التخصيص بالذكر يلهم او بالاحرى يدل على ان
من النساء من كان لها دور بارز أبان السيرة النبوية ، وبالتالي على ان منهن بارزات
ناهيات شيطانات لم يكن في عزلة عما يجري من امور خطيرة في بيئتهن وكن
يشتريكن فيها كذلك قبل البعثة ايضاً :

١ - المنافقون والمناققات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن
المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم .
التوبة ٦٧

٢ — يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الأحزاب ٧٣
 ٣ — ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن
 السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم واهتمهم واعد لهم جهنم وساءت مصيراً . .
 الفتح ٦

ولا يرد في ما يتبادر لنا أن موقف النساء انما كان تبعاً لموقف الرجال ، فع
 ما في هذا من وجهة فانه لو لم يكن يبدو احياناً من المرأة المناققة والمشاركة مواقف
 مؤذية لما اقتضت الحكمة بذكرها في بعض الآيات ، في حين ان الامر لو كان
 كذلك تماماً لأكتفى بإيراد ذكر المنافقين والمشركين في جميع الآيات التي ذكروا
 فيها بصيغة التذكير التي لم يكن يخفى انها تشمل الجنسين .
 على ان في القرآن آيات فيها دلالات خاصة فضلاً عما في الروايات الكثيرة
 المعتمدة .

فقد ذكرت امرأة أبي لهب في صورة المسد مع زوجها بأسلوب يدل على
 ما كان لها من دور في الهاب نار الفتنة والصد :
 « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب
 وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد . . . «صورة المسد»
 فالو لم يكن لها من موقف شديد ابان الدعوة ولا سيما في اوائل عهدها
 لان السورة مما نزل مبكراً جداً لما اختصت بهذا الوصف والانذار القرآنيين ؛
 وفي هذا بطبيعة الحال صورة لشخصية امرأة عربية قوية في اوائل البعثة . ولقد
 روى في ما روي انها اثرت في زوجها حتى جعلته يخالف تقاليد العصبية الشديدة
 ويناوي ابن اخيه العدا ، واثرت في ولديها حتى حملتها على تطليق ابنتي النبي
 (ص) وقد تمت خطبتها قبيل البعثة

وكما ورد في القرآن آيات تذكر المرأة في نفاقها وشركها فقد ورد فيه آيات
 تذكرها في ايمانها وصبرها وهجرتها وجرأنها .
 (١) ففي آية من سورة البروج ذكرت المؤمنات مع المؤمنين في محنة فحنة
 المسلمين وخاصة ضمقائهم في مكة من قبل زعماء المشركين :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .

البروج ١٠

وهذه الخنة من اشد وانكر ما واجهها المسلمون في مكة ، ومعنى هذا ان المرأة استجابت للدعوة وناصرتها وتعرضت في سبيلها للأذى والاضطهاد منذ ايامها الاولى . وفي الروايات اسماء عدد من النساء المؤمنات اللاتي تعرضن للأذى فصبرن حتى زهقت روح بعضهن وعمى بصر بعضهن .

٢) وفي سورة آل عمران ذكرت المرأة المسلمة في كل ما ذكر الرجل المسلم في ما تعرض له المسلمون من أذى :

« فاستجاب لهم ربهم إني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لاءكفروا عنهم سيئاتهم ولا تدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار . ١٩٥

ولقد ذكرت الروايات اسماء عدد غير قليل من النساء اسلمن وقتلن وقتلن واوذين في سبيل الله وهاجرن الى الحبشة والى المدينة رغم أهلهن ومنهن من كن بنات زعماء كانوا يقودون حركة المعارضة أو أخواتهم .

٣) وفي سور اخرى آيات اخرى فيها تنويه بالمسلمات مقروناً بتنويه بالمسلمين مما يدل على انه قد بدا من المرأة المسلمة من مواقف الاخلاص والتفاني ما قصت الحكمة بتخصيص التنويه بها وعدم الاكتفاء بذكر المسلمين بصيغة التذكير ولو انها ينطوي فيها الجنسان معاً :

١ — والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم .

التوبة ٧١

٢ — من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون .

النحل ٩٧

٣ — إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين

والمصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم منفرة وأجرأ عظاماً الأحزاب ٣٥
(٤) وفي سورتي النساء والفتح آيات تدل على أن بعض النساء المسلمات اللاتي عجزن عن الهجرة إلى المدينة ظلمن ثابتات على الإسلام رغم ما كان يحدث بهن من خطر وسوء جوارح مما فيه دلالة على قوة الجنان والعزيمة والجلد :

١ - وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً النساء ٧٥

٢ - ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم الفتح ٢٥

(٥) وفي سورة الممتحنة آية تشير إلى أن من النساء المسلمات اللاتي ظلمن في مكة من قوى على خرق النطاق والأقفال من قريش واللاحاق بالنبي (ص) ما يدل على قوة نفس ومضاء عزيمة وإقدام :

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار (١) الممتحنة ١٠

(٦) وفي السورة نفسها أمر خاص ببينة المؤمنات ، وقد رؤي أن بعضهن اتين النبي وطلبن منه أن يأخذ بيعتهن مستقلة وأسوة بالرجال فنزلت الآية بالإيجاب مما يدل كذلك على ما كان من المراجعات من شعور بالشمسية والطموح إلى التساوي مع الرجل :

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبأيعن واستغفر لهن الله الممتحنة ١١

(٧) وفي سورة المجادلة آية تحكي مجادلة إحدى النساء المسلمات النبي (ص)

(١) هذه الحادثة وقعت على اثر صلح الحديبية الذي كان من شروطه التزام المسلمين اعادت من يأتي اليهم مسلماً رغم أهله :

في أمر زوجها وشكواها منه فنزلت بأقرار الشكوى وتقرير الحق فيها وهي :
قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن

الله سميع بصير . . .

ففي الآيات جميعها صور تثبت ولا ريب شخصية بارزة وشأناً كانت المرأة المسلمة تسجلها لنفسها في مختلف المواقف والمجالات ؛ مما يسوغ القول بأن هذه الصور هي من صور المرأة العربية في بيئة النبي (ص) وعصره ، لا يعقل ان تكون مما أشده ابتداهاً : لاسيما والمرأة المسلمة والمشاركة والمنافقة سواء في هذا المظهر بوجه عام منها اختلفت الاشكال .

ولقد كانت دعوة القرآن عامة للرجل والمرأة على السواء . ولقد كانت المرأة فيه بجميع الواجبات الأيمانية والتعبدية والمالية البدنية والاجتماعية الخطيرة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبادل النصر مع الرجال والجهاد بالمال والنفس ومنحت حقوقها وحريتها تتصرفه فيها كما يتصرف الرجل من حيث الاجمال وفي ما عدا استثنائات قليلة معينة . فمن الممكن ان يدل هذا على انها قد كانت المرأة العربية وهي اولى النساء المخاطبات بالقرآن على العمومية مترشحة لكل ذلك ، وانها وصلت الى طور كانت فيه متأهلة لاثبات شخصيتها ووجودها وممارسة حقوقها او الى طور اخذت تبدو اهليتها لذلك قوية بارزة .

عادات وتقاليد متنوعة

- ٥ -

ومن الآيات التي استعرضناها ومن آيات أخرى سنستعرضها بعد قليل يمكن الاستدلال على عادات وتقاليد متنوعة تتصل بحياة الاسرة والمواريث واليتامى والمرأة .

اولاً : ان الفراق بالطلاق كان معروفاً قبل البعثة : لأن الآيات فيه تلمح ذلك وتلهم انها بسبيل تنظيمه ومنع ما فيه من شذوذ وغبن . وقد كانت عقده بيد الزوج وقد كان الأزواج يتخذون الطلاق احياناً وسيلة لمضارة الزوجة وابتزاز اموالها وحملها على افتداء نفسها بالمال من زوجها ؛ كذلك فان آيات الطلاق تلمح ان منه

ما كان بائناً ومنه من كان رجماً ؛ وان الطلاق الرجعي كان كذلك وسيلة الى ابتزاز المال او المضارة من ناحية الزوج حيناً ومن ناحية أهل الزوجة حيناً ؛ حيث كان الزوج يطلق طلاقاً غير بات — وهو الذي سميناد رجماً — فتبقى الزوجة معلقة في عصمته لا يسرحها ولا يمسكها بمعروف وحسن معاشرة ، او حيث كانوا أهل الزوجة يمنعون الزوجة من الرجوع الى زوجها ، اما بقصد ابتزاز مال منه او بسائق الحقد . . .

ثانياً : انه كان عند العرب عادتان لهجران الزوج زوجته في العلاقات الزوجية مع بقائها في عصمته وبيته اولاهما : «الظهار» وذلك بأن يقول الزوج لزوجته «أنت علي كظهر أمي» فتصبح محرمة عليه جنسياً ، ولكنها لا تخرج من عصمته ، فهي معلقة لا زوجة ولا مطلقة . وقد كانوا يفعلون ذلك على ما يستفاد من اقوال المفسرين والرواة سخطاً على ولادة البنات ؛ فاذا ولدت الزوجة ابنة وكره الزوج ذلك أمرها ان تهداها ، فاذا ترددت قال لها انت علي كظهر أمي ان لم تدسيها . ولا يبعد انهم كانوا يظاهرون من نساءهم اللاتي اعتدن ولادة البنات تشاؤماً ومخافة ان تظن تلدهن اذا استمرت العلاقات الجنسية على طبيعتها . ومن المحتمل انهم كانوا يعمدون الى هذه الطريقة بدلاً من الفراق بالطلاق وحينما يكون الزوجات اولاد فيمسكن أزواجهم برأ باولادهن واشفاقاً عليهم ، وربما كانوا يمسكونهن أنفة من ان ينكحن غيرهم كما يحتمل انهم يعمدون الى هذه الطريقة لأرهاق الزوجة وابتزاز اموالها واسترجاع ما أخذته من صداق في الحياة — وقد نهت الآيات اكثر من مرة على ذلك وشددت في منعه — او الاستيلاء على تركتها بعد الموت . وثانيتها : الايلاء . ومعناه اللغوي اليقين . فقد كان الزوج يحلف بعدم قرب زوجته فتصبح محرمة عليه ولكنها تظل في عصمته ، معلقة لا زوجة ولا مطلقة وقد كانوا يفعلون ذلك سخطاً على الزوجة اذا خالفت لزوجها امرأ ورفضت له مطلباً ، وقد يكون من اسبابه اعتماد ولادة البنات كما ان من المحتمل ان يكون قوم اعتادوا الهجر بالظهار وأخرون بالايلاء . والاسباب التي كانت تحملهم على هذا الهجر دون الطلاق نفس الاسباب التي ذكرناها في عادة الظهار على ما هو المتبادر

ثالثاً : ومن هذه العادات عزل النساء في الحيض . فلا يقربن ولا يجالسن ولا يواكلن حتى يطهرن ؛ ويستفاد من اقوال المفسرين والرواة ان هذه العادة من عادة اهل المدينة ؛ والغالب انها تسربت اليهم او الى العرب من اليهودية التي تعتبر الحائض نجسة الى ان تطهر ، وتوجب عزولها عن سائر افراد العائلة ولا يزال السامريون وهم طائفة من الاسرائيليين او اليهود يمسكون بالتوراة دون التلمود يأخذون أنفسهم بهذه الشريعة الى الآن . وهذه العادة مما يستلهم من الآية التالية :

ويسألونك عن الحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن

البقرة ٢٢٢

حيث روى في صدها ان بعض المسلمين سأل النبي (ص) عن الحيض وما كان من عادة عزل النساء في كل شئ فزلت تحذر من قربهن جنسياً فحسب دون سائر الامور .

رابعاً : وكان من العادة ان تلتزم الزوجة التي يتوفى عنها زوجها الحداد حولا كاملاً فلا تخرج من بيتها ؛ ولا تعرض نفسها للزواج ولا يتعرض الغير لها فيه ولا تطيب ولا تلبس الثياب المفرحة ولا تزين طول السنة ويسمى ذلك عدة الحداد ؛ وهذا يستلهم من الآية التالية :

والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً وصية لازواجهن متاعاً الى الحول غير إخراج فأن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن من معروف

البقرة ٢٤٠

حيث احتوت تشريعاً بوجوب الانفاق على الزوجة من مال الزوج طول الحول وعدم حق الوارثين في اخراجها ؛ وتخفيفاً عليها بحيث لا يكون حرج عليها اذا خرجت من بيت زوجها المتوفى قبل انقضاء العام .

وخامساً : وقد كان من السائق ان يتزوج الرجل بزوجة ابيه المتوفى كما اشارت الى ذلك احدي الآيات بأسلوب استنكاري شديد :

ولا نكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتنا

النساء ٤١

وساء سييلاً . . .

ولا نستبعد ان تكون هذه العادة وسيلة كان يتخذها الولد الوارت لحجز
زوجة ابيه عن الزواج او حملها على التنازل عن حقوقها في الميراث كما يرجح انها
لم تكن عادة شائمة . وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد الآية ان ابن الزوج
المتوفي اذا اراد زوجة ابيه التي عليها ثوباً قبل دفن الميت او فور دفنه فيكون
ذلك علامة . وهذا قد يستند ما قلناه من عدم الشيوع اولاً ومن قصد حجز
الحرية والابتزاز .

-٧-

سادساً : وقد كان من السائغ ان يجمع الرجل الاختين زوجتين في عصمته
في وقت واحد كما يفهم من آية تحريم المناكح .

حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات
الاخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم
اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا
جناح عليكم وحلائل ابناءكم الذين من أصلابكم وإن تجمعوا بين الاختين إلا ما
قد سلف . . .

النساء ٤٣

ونبيه على اننا لم نطلع في ما قرأناه على ان من هذه المحرمات ما كان سائغاً غير
محرم عند العرب عدا جمع الاختين وزواج الابن أرملة ابيه ، كما ان القرآن لم يشتر
الى حظر مخصص كان جارياً في ما سلف الا الى هاتين الحالتين ؛ مما يمكن ان
يستدل به على ان محرمات الانكحة في الآية كانت من المحرمات قبل البعثة ايضاً عدا
جمع الاختين . وقد تلهم الفقرة الواردة بشأن الربائب انهن كانا يحرم من على الرجال
ولو لم يدخل بأمهاتهن . اما وصف حلائل الابناء بالذين هم من الاصلاب فالقصد
منه اخراج حلائل الابناء بالتبني اي الذين هم من غير الاصلاب . وهو موضوع
له علاقة بمادة اخرى سنشير اليها بعد قليل .

سابعاً: وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء دون تحديد في المدة؛ (١) فاعتبرت الآية (٣) من سورة النساء وقد نقلناها تحديداً لما يجمعه الرجل في عصمته من الزوجات وهو أربع؛ وكان الزواج عقداً، والزواج يدفع مهرأ، وعقدة الزواج بيده.

ثامناً: وقد كانت عادة تسري الاماء فاشية؛ ولم يكن عدد الاماء اللاتي يمكن للرجل ان يتسراهن محدوداً؛ فكان يستطيع ان ينكح من امائه ما يشاء بدون عقد زواج ولا مهر؛ لانهن ملك يمينه، وان يهب او يبيع من ينكحها منهن بدون طلاق اذا لم تكن قد ولدت له.

وقد أقر الاسلام هذه العادة على حثلها؛ حيث احتوى القرآن بضع آيات ومنها آية تحريم الانكحة جاء الكلام في هذا مطلقاً لا تحديد فيه، وجرى العمل على ذلك في العهد النبوي على ما هو ثابت يقيني؛ وهذه بعض الآيات التي وردت في هذا الشأن ومنها المكي ومنها المدني:

- ١ — والذين هم لفروجهم حافظون إلا على ازواجهم او ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . . .
- ٢ — فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم . . . النساء ٣
- ٣ — والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم . . . النساء ٢٤
- ٤ — لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك . . . الاحزاب ٥٢



تاسعاً: وكان من العادات السائفة نكاح «المتمة» وهو زواج لاجل معين يتفق عليه الزوجان فاذا ما انتهى فارق كل منهما رفيقه، وقد أقرت هذه العادة ردحاً من العهد النبوي ثم ابطلت؛ ومما روي انها ظلت سائفة الى خلافة عمر بن الخطاب

(١) من الثابت اليقيني ان النبي (ص) جمع في عصمته تسع زوجات.

(رض) وهو الذي منحها ؛ غير ان بعض المذاهب الفقهية لم تر انها نسخت وظلت
تعتبر هذا الزواج مشروعاً .

ونذبه على ان القرآن لم يشر الى هذه العادة بوضوح وصراحة ؛ غير ان
المفسرين والفقهاء رأوا انها مندرجة في آية النساء ٣٤ :

والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم
ما وراء ذلكم أن يبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن
أجورهن فريضةً ولا جناح عليكم في ما تراضيتن به من بعد الفريضة ...

وقد قال بعض المفسرين والرواة أن ابن عباس كان يقرأ بعد « منهن » جملة
« الى اجل مسمى » كما كان يقولها تفسيراً (١)

ومها يكن من أمر فالظاهر ان هذه العادة التي لا تزال مستمرة الى الآن كما
قلنا كانت من العادات السائغة في العهد النبوي وما قبله .

عائراً : وفي القرآن آيات ذكر فيها اتخاذ الاخذان في صدد الرجال والنساء
معاً كما ذكر فيها المسافحة ايضاً كما ترى في الآيات التالية :

١ - ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات (٢) المؤمنات فمن ما ملكت
أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض فأنكحوهن باذن
أهلبن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات (٣) غير مسافحات ولا متخذات
أخذانٍ فاذا أحصن فإن أتبن بفاحشة فعلمين نصف ما على المحصنات من العذاب
ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم... النساء ٢٥

٢ - اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم
حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات (٣) من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم
إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخذان ومن يكفر
بالأيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ... المائدة ٥

(١) اقرأ الكشاف ومجمع البيان في تفسير الآية .

(٢) المحصنات هنا بمعنى الحرائر اي غير الأماء .

(٣) هنا بمعنى العفة .

حيث احتوت أشارات الى صلوات الرجل الجنسية بالمرأة عن غير طريق النكاح الشرعي والعقدي وبغير قصد الأحصان وأنشاء كيان عائلي ، وهي السفاح واتخاذ الإخذان ؛ والأسلوب مما يلهم ان هذه الصلوات مما كان جارياً في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ حيث توخى في الآيات حظه . وقد روى المفسرون انه كان من العادات السائغة في الجاهلية ان يتخذ الرجال خليلات وان يتخذ النساء أخلاء بدون عقد . والراجح ان هذا التخالل كان سائغاً بنوع خاص بالنسبة لغير المتزوجين والمتزوجات اولاً وبالنسبة للأماء والكتبايات ثانياً وهو مما يمكن ان تاهمه الآيات كما ان الراجح ان هذا التخالل كان مما تطول مدته وليس من نوع الصلوات الجنسية العابرة ، وهذا هو مفهوم التخاذل على ما هو المتبادر .

اما المسافحة فهي قضاء الشهوة الجنسية بدون طريق عقدي مطلقاً ، غير ان النهي عنها في صدد الزواج بالأماء والكتبايات يلهم انه نوع آخر من التخاذل ، وليس من نوع الصلوات الجنسية العابرة ؛ فالنهي منصب على ايجاب نية الأحصان والكيان العائلي في الزوج بالأماء والكتبايات .

وتخصيص النهي عن المسافحة والمخادنة في الأماء والكتبايات يلهم انهن اكثر تعرضاً للبغاء وارتكاساً فيه ايضاً كما يلهم ان البغاء كان مستساغاً بالنسبة اليهن كذلك بالاضافة الى استساغة التخاذل والمسافحة معهن . وينبه خاصة على الآية (٢٥) فانها لا تشجع على الزوج بالأماء الا في حالة الضرورة ، وتحث على الصبر وتفضله على ذلك ، وتذكر مع ذكر نكاحهن عدم السفاح والمخادنة ، كما ان هذان الامران مما هو متوقع منهن . وتجعل عقوبة الزنا عليهن نصف ما على الحرائر كما انهما تعتبر ارتكاسهن في الفاحشة اكثر توقفاً وتعرضهن للبغاء أقرب احتمالاً ، وعار ذلك أقل شدة ؛ وفي هذا سند لما قلناه في صددهن كما هو المتبادر .

وفي سورة الأحزاب آية وردت في صدد زني النساء وهي :

يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ...

وقد قال المفسرون والرواة أن الآية نزلت لتمييز الحرائر من الأماء ؛ لان

الشباب وطلاب الشهوة والفاستقين كانوا يتعرضون للاماء في السكك والطرق ، وكان يحدث ان يخلطوا بينهم وبين الحرائر فينال هؤلاء من ذلك الاذى . والآية في فخاها ظاهرة القصد ، وتؤيد من ناحية ما ما نحن في صدده من كون الاماء اكثر ارتكاساً في البغاء وتعرضاً له من الحرائر .

— ١ —

حادي عشر : وفي القرآن آيات عديدة مكية ومدنية في الزنا منها ما ذكر بلفظه هذا وما يشتق منه ومنها ما ذكر بوصف الفاحشة ومنها ما ذكر باسم البغاء والزانية باسم البغي كما ترى في الآيات التالية ؛

١ — واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلاً . واللذان (١) يأتينها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنها إن الله كان تواباً رحيماً ... النساء ١٥ — ١٦

٢ — ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً ... الاسراء ٣٢

٣ — قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً ... مريم ٢٠

٤ — والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم

فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ... المؤمنون ٥ — ٧

٥ — الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... النور ٢

٦ — الزاني لا ينكح إلا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او

مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين ... النور ٣

٧ — ولا تکرهوا فتياتکم على البغاء إن أردن تحصناً (٢) ... النور ٣٣

٨ — والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا

(١) الزاني والزانية كما جاء في كشف الخمشري .

(٢) لا تجسوا إمائكم عن التزوج اذا اردنه فان في ذلك أكرهاهن

على البغاء . وهذا هو الوجه الصحيح فيما نعتقد من تأويل الآية وليس ما هو متداول

في كتب التفسير من تكسب بعض الناس من اجبار امائهم على البغاء .

بالحق ولا يزنوئ ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً . . . الفرقان ٦٨

حيث تسوغ القول ان بيثة النبي (ص) في عصره لم تكن لتشد عن طبيعة الحياة الانسانية وتخلو من الزنا المأبر ، بل وتلهم ان هذا لم يكن ضيق الشيوخ وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً . ويلاحظ خاصة ان آيات النساء لم تفرض عقوبة معينة على الزناة بل جنحت الى معاملتهم بشئ من التخفيف كما انها فرضت اربعة شهود عليهم مما لا يكاد يتيسر وقوعه الا في حالة الاستهتار التام او الندرة النادرة ، وأن آيات النور بالجلد والتشديد في الزجر لم تنزل الا بعد مدة ما ؛ وهذا وذاك مما يدل على رسوخه وشيوعه بحيث اقتضت الحكمة التدرج في الزجر عنه أولاً وتقادي شيوع أخباره بالتشدد في اثباته ثانياً . وامل هذا التشدد يلهم ان اتهام الناس بعضهم بعضاً به كان كذلك كثير الشيوع ، وهذا هو في حد ذاته سند لما كان عليه من رسوخ وشيوع .

ولقد ذكرت الروايات ان آية نزلت في رجم الزناة المتزوجين ، واختلف في صيغتها وفي نسخها ، والجمهور على أنها منسوخة لفظاً وباقية حكماً ؛ وحكمة نسخها على هذا الوجه وقد احتوت حكماً خطيراً غير مفهومة ، والذي تميل اليه ترجيح احتمال نزولها ثم اقتضاء حكمة التنزيل نسخها بالمره . واذا صح هذا ففيه ما يدعم ما قررناه ايضاً . وواضح ان هذا لا يتعارض مع ما ذكرناه قبل قليل استلهاماً من القرآن من أن الائمةاء والكتبايات ، كن الاكثر تعرضاً لابغاء وارتكاساً فيه . ولقد روى في صدد آية الممتحنة في مبايعة النساء (١٢) التي تقانها قبل قليل ان هنداً زوجة أبي سفيان حينما بايعت النبي (ص) ووصل القول الى جملة «ولا يزنين» هتفت قائلة وهسل تزني الحرة ؛ مما يمكن الاستئناس به على دجة استلهامنا ايضاً .

— ١١ —

ثاني عشر : وكان من العادات السائفة ان يدخل الرجال الى البيوت بدون تكلف واستئذان ، وان يسمر الرجال والنساء معاً ، وان يباح خاصة للخدم وملاك الخيم الدخول على المخادع في أي وقت ، وهذا مستلهم من آيات وردت بالنهي عن ذلك وبتعليم الادب اللائق في صده وعي :

١ — يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم

النور ٢٧/٢٨

٢ — يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون (١) ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فاستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك بين الله لكم آياته والله عليم حكيم . . .

النور ٥٨ — ٥٩

٣ — يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه (٢) ولكن اذا دعيتهم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتوهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب (٣) ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن . . .

الاحزاب ٥٣

- ١٢ -

ثاني عشر: كذلك كان من العادات السائغة ان تبرز المرأة للرجال ؛ وتترأى أمامهم متبرجة متزينة مكشوفة العنق والصدر ، وكان النساء يتحايين بالحلي في أرجلهن بالإضافة الى حلي ايديهن وأذانهن وأجبيادهن كما تلبسه الآيات التالية التي وردت في معرض التعليم والتأديب :

١ — « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

(١) حين تخلعون ثيابكم .

(٢) غير منتظرين لضججه .

(٣) من وراء ستر اي لا تدخلوا ولو كان لكم شيء تطلبونه .

ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وايضرن بحمُرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن
إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو أخوانهن أو بني
أخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو مملكات أيمانهن أو التابعين غير أولي الأريبة (١) من
الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضرن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من
زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون النور ٣٥ - ٣٦

٣ - والقواعد من النساء الاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن
ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم النور ٦٠
ثالث عشر : وكانوا على ما تلهمه آية اخرى يتفرقون في السكني بحيث يسكن
الآباء لخدمتهم والأبناء لخدمتهم فضلاً عن سكني كل من الإخوان والاعمام والأخوال
والأخوات والمات والمخالات لخدمتهن .

ولا على انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت امهاتكم أو بيوت
إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم
أو بيوت خالاتكم النور ٦١

- ١٢ -

رابع عشر : وكان من عاداتهم التبني ؛ حيث كان الرجل يلحق به ولداً من غير
صلبه ويدعيه ابناً له ؛ فيصبح بمثابة ابنه من صلبه ، ويدعى اي ينتسب اليه فيتسمى
باسمه ، ويتوارث معه ، وتكون محارم المتبني محارمه كما لو كان من صلبه ؛ فلا يحل
للمتبني ان ينكح مطلقه متبناه او ارملةه ، ولا ابنته ولا امه ولا اخته ، ولا يحل للمتبني
مثل ذلك . وقد تبني النبي (س) قبل بعثته غلاماً اسمه زيد بن حارثة فصار يدعى زيد
بن محمد . وكان التبني يجري على ملاء من الناس فيعان المتبني تبنيه ويشهد على نفسه
بذلك بعبارات مأثورة (٢) وقد خطباً القرآن هذه العادة وابطلها في الآيات التالية :

١ - وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو
يهدي السبيل . ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في
الدين ومواليكم الاحزاب ٤ - ٥

(١) القدرة الجنسية (٢) أسد الغابة . ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥

٤ - وما كان يؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً . وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكانت أمر الله مفعولاً . ما كان على النبي من حرج في ما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ...

الاحزاب ٣٦-٤٠

النساء ٣٣

٣ - وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ...

وآيات الأحزاب ٣٦ - ٤٠ وما روي في صدها تدل على رسوخ حرمة تقاليد النبي وخاصة تزوج المتبني بطلقة متبناه في نفوس العرب وحتى في النبي (ص) نفسه حيث لم يكن بد من مباشرة النبي (ص) إبطال هذا التقليد بنفسه ؛ وحيث كانت هذه المباشرة مما ثقل على نفسه خشية كلام الناس ، ويدل كذلك على ان فريقاً من المخلصين والمنافقين معاً قد استعظموا هذا الإبطال ، وكان له رد فعل شديد وجرى فيه قيل وقال ...

خامس عشر: وكان من عادة البيوتات العربية وخاصة في المدن ان يسترضعوا أولادهم في البوادي أي يسلموهم لمرضعات بدويات فيكون لهم بذلك فرصة قضاء زمن الطفولة الأولى في البادية حيث الهواء النقي والصحة الجيدة والعروبة الخالصة . وهذه العادة على هذا الوجه لم تذكر في القرآن وإنما وردت فيه إشارة الى الاسترضاع وهي :

وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا ملأتم ما آتيتم بالمعروف ..

البقره ٢٣٣

وقد ذكرت الروايات الاسترضاع على الوجه الذي شرحناه والذي يبدو منه ان هذه العادة كانت شائعة شيوعاً غير يسير .

سادس عشر : وكان من عادة العرب أن لا يستمجلوا في فطام أطفالهم ، حيث ذكرت إحدى الآيات ان مدة الرضاع التامة سنتان واخرى ان الفصال أي الفطام عامان ، وأشير في أحدها الى ان مدة الحمل والفصال ثلاثون شهراً وهذا يعني ان مدة الرضاع المتعارف عليها تزيد على عشرين شهراً :

١ - والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ...

البقرة ٢٣٣

٢ - ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ...

لقمان ١٤

٣ - ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله

والفصاله ثلاثون شهراً ...

والفصاله ثلاثون شهراً ...

سابع عشر : وكان من العادة ان يعتبر من يبلغ سن النكاح او بتعبير آخر سن القدرة الجنسية راشداً كما يستلهم من هذه الآية التي تضمنت بعض التمديد بسبيل الاستيثاق من الرشد العقلي أيضاً :

وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ...

النساء ٦

- ١٣ -

ثامن عشر : وكان من العادات الجارية قتل الاولاد ووأد البنات كما ترى في

الآيات التالية :

١ - ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... الانعام ١٥١

٢ - واذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من

القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب .. النحل ٥٨-٥٩

٣ - ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً

كبيراً ...

كبيراً ...

٤ - يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يابعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا

يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ...

يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ...

التكوير ٨ - ٩

٥ - وإذا المؤودة سُئلت . بأي ذنب قتلت ...

ويمكن ان يستلهم من هذه الآيات ان فريقاً من العرب كانوا يقتلون اولادهم من الفقر والأملق أو خشيته منها ، وأن فريقاً آخر كانوا يثدنون بناتهم سخطاً وكرهاً لولادتهن . وآيات النحل والاسراء خاصة تلهم هذا التنوع في الاسباب ، وتلهم أن قتل الاولاد خشية الاملاق أو بسببه كان يتناول الذكور والاناث معاً ، ولعل هذا كان يقع في سني القحط والجذب التي كان اقليم الحجاز معرضاً لاحتها ، ولعله كان يقع في البوادي اكثر مما يقع في المدن . وواضح ان وأد البنات ودسهن في القرب كان بسائق غير هذا السائق وهو سائق المتاعب ومواقف الخجل والخزي وهار السبي وعدم الغناء في الحروب ودواعي الحمية والمصيبة والتكاثر حيث كان كل هذا مما هو من مظاهر ومتاعب ومشاكل عصر النبي (ص) وبيئته .

وننبه على ان في سورة الانعام آيات تدل على ان العرب كانوا يذبجون أحياناً أبناءهم قرباناً للآلهة وبسائق ديني ، وقد تركنا الكلام على هذه العادة الى باب العقائد والاديان .

— ١٤ —

تاسع عشر: وآيات الموارث التي نقلناها (١) وآية الوصية التي نزلت قبلها وهي: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين . فمن بدله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ...

البقرة ١٨٠ - ١٨١

يمكن ان تلهم (١) أنه لم يكن نظام محدود للموارث يعرف به كل وارث حقه في أرث المتوفي من ذوي رحمه وقرباه (٢) أن حق النساء زوجات وبنات واخوات في الارث لم يكن شيئاً مقررأ ثابتاً بل انه كان متموجاً حسب الظروف (٣) أن حق الأبوين في الارث لم يكن كذلك مقررأ ثابتاً (٤) أن الأولاد الذكور هم الذين كانوا يستولون على التركة ثم يكون الأجداد والنساء وذووا القربى الآخرون تحت رحمة الظروف يحرمون حيناً ويعطون حيناً . (٥) أن وصية المورث لم يكن يعمل بها كأمر واجب التنفيذ بل تكون كذلك تحت رحمة

(١) آيات سورة النساء ٧-٨ و ١١-١٤ و ١٢٧ و ١٧٦

الظروف وهوى الوارثين (٦) ان التورث كان احساناً حسب وصية المورث (٧) ان ارث الذي يموت كلاله أي بدون ولد ولا أبوين كان من الامور المعقدة التابعة لقوة رجال العصبه وقلمها كان الأخوات خاصة يملن نصيبهن او نصيبهن الكامل منه عشرون : ولقد ورد في القرآن آيات عديدة تحث على احترام الوالدين ومعاملتها بالرفق والحسنى وتنبهي عن إغضابها وعقوقها وتأمرا بالانفاق عليهما والوصية لهما ثم تعين لهما نصيباً مفروضاً في تركه ولدها ولا تركها تحت رحمة الوصية المتموجة والظروف المتنوعة كما ترى في ما يلي :

١ — يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فمما للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . البقرة ٢١٥

٣ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين . . . النساء ٣٦

٣ — قل تعالوا أتلق ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً . . . الانعام ١٥١

٤ — وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . . . الاسراء ٢٣٤-٢٤

٥ — ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصاح لي في ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين . اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون . . . الاحقاف ١٥-١٦

٦ — يضاف الى هذه الآيات آيات الوصية (١٨٠-١٨١ البقرة) وآيات الموارث (١١-١٤ النساء)

فهذا التوكيد والتكرار بهذا الاسلوب على وجوب رعاية حق الوالدين

وكرامتهم والأفناق عليهم والإيحاء لهم ثم النص على نصيب معين لهم في تركة أولادهم يمكن أن يلهم بان حق الوالدين وكرامتهم ومعيشتهم لم تكن مصبوة على وجه واف قبل البعثة، وانهم كانوا عرضة للأهمال والعقرق والموز؛ ولعل هذا كان شأن الذين يبالغون ارذل العمر منهم في الدرجة الأولى ...

ونبهه على ان هناك آيات مكية ومدنية تسقط واجب الطاعة عن الاولاد اذا ما أمرهم أبواهم بالشرك ، وتأمر بعامم اتخاذ الآباء أولياء اذا استحبوا الكفر على الايمان مثل آيات سورة لقمان ١٤ - ١٥ والمنكبوت ٨ والتوبة ٢٣ - ٢٤ والمجادلة ٣٣ لنقول إن هذه الآيات مما هو متصل بظروف الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية واستدراك لما أمرته آيات القرآن بطاعة الآباء اطلاقاً .

- ١٤ -

واحد وعشرون : ولقد ورد كذلك في القرآن آيات عديدة مكية ومدنية تحت على رعاية اليتيم والبرّ به وعدم أكل أمواله والتلاعب فيها في صبيغ وأساليب متنوعة وشديدة كما ترى في ما يلي :

- ١ - ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ... البقرة ١٧٧
- ٢ - يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلكم والدين والاقربين واليتامى والمساكين ... البقرة ٢١٥
- ٣ - ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فآخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح (١) ... البقره ٢٢٠
- ٤ - وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وأن خفتم الاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ... (٢)

(١) تخرج المسامون من شدة تحذير القرآن في صدد التنظيم فنزات
(٢) كان الاوصياء على اليتيمات الغنيات يضمنون بتزويجهن للغير لئلا تذهب أموالهن من أيديهم فيتزوجوهن او يزوجهن من اولادهم فاذا لم يكن جميلات نالهن الأذى فنبهت الآيات على عدم الوقوع في الأثم المحتمل .

٥ - وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم
أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن
كان فقيراً فليأكل بالمعروف ... النساء ٦

٦ - إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظالماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً
وسيصالون سعيراً ... النساء ١٠

٧ - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى
واليتامى والمساكين ... النساء ٣٦

٨ - ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى
النساء السلافي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن والمستضعفين من
الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط (١) النساء ١٣٧

٩ - ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده (٢)

الانعام ١٥٢

١٠ - واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللا رسول ولذي القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الانفال ٤١

١١ - ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلاله وللا رسول ولذي القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الحشر ٧

١٢ - ويعلمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ... الانسان ٨

١٣ - كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين ...

الفجر ١٧ - ١٨

١٩ - فلا اقتحم العقبة . وما ادراك ما العقبة . فك رقبة . او إعطام في يوم
ذي مضية . يقيماً ذا مقربة . او مسكيناً ذا متربة ... البلد ١١ - ١٦

٢٠ - أما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تقهر ... الضحى ٩ - ١٠

(١) في هذه الآية توضيح الآيات ٣ من النساء

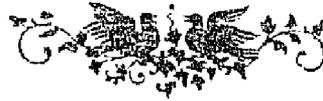
(٢) في سورة الاسراء آية مماثلة لهذه الآية .

٢١ - أ رأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع (١) اليتيم . ولا يحض

الماعون ١ - ٣

على طعام المسكين . . .

ومع ان المسلم به ان العناية بالضعفاء من المبادئ العالما التي انطوت في الدعوة
الاسلامية فان هذه الحفاوة العظيمة بأمر اليتيم يمكن ان تلهم انه لم يكن مضمون
الحق او موضع بر وعناية كافية فكان هذا التشديد وهذه الحفاوة في صدد
الامرين ، كما يمكن ان تكون منطوية على صور مما كان يعامل به اليتيم ويتلاعب
في امواله في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .



(١) يادعه بشدة

الفصل الثاني

في العصبية الاجتماعية

أثر العصبية الاجتماعية في بيئة النبي (ص) وعصره — عصبية الاقارب والارحام ومداها — صور واستدلالات قرآنية في صدها — ولاية الدم والعقل — مدى حفاوة القرآن بالبر بالاقارب — عصبية الاقارب ومداها — صور واستدلالات قرآنية — عصبية التحالف القبلي ومداها — صور واستدلالات قرآنية — ذكر الاحزاب في القرآن ومدى ذلك — استمرار هذا النوع من التحالف الى ما بعد البعثة — التفاوت في قوة العصبيات التي سبق الكلام عنها — استطراد الى تصحيح خطأ عن فردية العرب — عصبية الولاء ومداها — صور واستدلالات قرآنية — الولاء الجمعي — مفهوم ومدشأ تسمية المسلمين غير العرب بالموالي — عصبية الجوار ومداها — صور واستدلالات قرآنية — عصبية التمسك باليد ومداها — صور واستدلالات قرآنية — أثر هذه العصبية في موقف العرب الجحودي من الدعوة الاسلامية — ما يلمح من الحكمة في ابقاء كثير من التقاليد القديمة في الإسلام

— ١ —

في القرآن آيات عديدة يستدل من بعضها صراحة ومن بعضها ضمناً أو لمخاً على مظهر من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر النبي (ص) وبيئته يقوم عليه البنيان الاجتماعي الى حد كبير وهو « العصبية » بين الوحدات الاجتماعية ، وتقصد بها تعصب أفراد الوحدات التي كان يتألف منها المجتمع اذ ذلك كالتبيلة والعشيرة والبطن والعائلة لبعضهم في ما يكون بينهم من مصالح مشتركة ، ونصرة بعضهم لبعض حمية وألفة وذبا عن هذه المصالح معنوية كانت أو مادية . وقد كانت هذه العصبية شديدة قوية وذات أثر كبير في التوازن بين قوى

الجماعات التي كان يتألف منها المجتمع ، وفي دفع الناس بعضهم ببعض ، وصيانة حقوقهم وكرامتهم وحياتهم . ولقد بلغ من شدة رسوخها انها ظلت قوية ، وكان لها أثر فعال في كثير من أحداث التاريخ الاسلامي وسيره وتطوره الى اواخر القرن الهجري الثالث أو بكلمة اخرى الى ان انحلت عقدة السلطان العربي ، وذلك بالرغم من تنديد القرآن بها ، وتحذيره منها استهدافاً لاقامة بنيان المجتمع الاسلامي الذي كان في اوله عربياً على أساس الاخوة الدينية العامة والمصالحة المشتركة بين الذين تألف منهم هذا المجتمع وولاية المسلمين بعضهم بعضاً ، بقطع النظر عن اختلاف القبائل والبطون والمناشيء والنحل السابقة والأحساب والانساب والطبقات الخ بدلا من الأساس الذي كان يقوم عليه وهو العصبية القبلية والعائلية الضيقة النطاق . كما ترى في الآيات التالية :

- ١ — واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً . . . آل عمران ١٠٣
- ٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن يجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً . . . النساء ١٤٤
- ٣ — إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . . . المائدة ٥٥-٥٧
- ٤ — وإن يريدوا أن يخدعوا فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . . . الانفال ٦٢ - ٦٤
- ٥ — إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . . . الانفال ٧١

٩ — والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . . .

الانفال ٧٣

٧ — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . . .

الانفال ٧٥

٧ — فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين . . .

التوبة ١١

٩ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر

التوبة ٣٣

على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . . .

التوبة ٧١

١٠ — والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . . .

١١ — انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . . .

الحجرات ٩

١٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء أولئك هم الملوذة

وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن

كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالموذة وأنا أعلم بما أخفيتم

المتحنة ١

وما أعلنتهم ومن يفعلهم منكم فقد ضل سواء السبيل . . .

١٣ — لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله

المجادلة ٢٢

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . .

— ٢ —

واليك الآن المظاهر التي كانت تظهر بها العصبية الاجتماعية .

اولاً عصبية الاقارب وذوي الأرحام :

كان افراد العائلة او الفخذ او البطن او الحامولة اي افراد الوحدة الاجتماعية

الصغرى الذين تجمع بينهم الارحام القريبة يتضامنون معاً في الدفاع عن بعضهم

والاستنصار لبعضهم في مختلف المواقف والمصالح ، بحيث يكون من واجب كل

فرد ان يحمي وان ينتصر لأي فرد من أفراد وحدته اذا وقع في مأزق او وقع عليه

عدوان ، وان يثأر له من المعتدي او من ذوي رحمه وقرباه ؛ وبحيث يكون ما جترحه

أحدهم ضد الآخر من وحدة أخرى من عدوان أو قتل أو ظلم مظلوماً ثأره وغرمه من أي فرد من أفراد وحدته ، هذا عدا ما يكون من واجب كل فرد منفردين ومجتمعين من التضامن في الدفاع عن سمعة الوحدة وشرفها ومصالحها المشتركة والانتصار لها من يكون قد اعتدى عليها ، وبكلمة واحدة ان ذوي الارحام والقربى كانوا ينتصرون ظالمين او مظلومين حتى ولو كانوا متغايرين في العقيدة والميول ويمكن استلزام هذا من الآيات التالية :

(١) في سورة النساء هتاف بالناس بان يتقوا الارحام التي يتساءلون بها اي يعز عليهم أمرها ويتأثرون في حياتهم المادية والمعنوية بها :

واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . . . النساء ١

(٢) وفي سورة محمد تنديد بالمنافقين على جنبهم وتذكير لهم بما يمكن ان يجره هذا الجبن من تقطيع الارحام :

فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم . . .

محمد ٢٢

كأنما في الآية مناشدة بالارحام كما في الآية السابقة مما يدل على درجة شدة روابطها .

(٣) وفي سورة الانعام آية روى المفسرون انها نزلت في موقف ابي طالب عم النبي (ص) وأقاربه الذين كانوا يدافعون عن النبي (ص) بينما كانوا يناؤون عن الاستجابة الى دعوته وهي :

وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . . .

الانعام ٢٦

ومن الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين ان فريقاً كبيراً من اقارب النبي هاشميين ومطلبين كانوا ينتصرون فعلاً للنبي (ص) بينما كانوا يتمسكون بدين الآباء بسائق عصبية الرحم والقربى ، وانه كان لانتصارهم هذا أثر كبير في بقاء النبي (ص) في مكة حينما اشتد الاذى على المسلمين واضطر كثير منهم او اكثرهم من لاجمى لهم الى الهجرة الى الحبشة .

وشذوذ عم النبي (ص) عبد المزي الذي لقبه القرآن بأبي لهب في سورة المسد لا ينقص هذا لانه شذوذ فردي ؛ على ان بعض الروايات ذكرت ان ابا لهب قد ثارت مرة ثأرتة عصبية لآخيه أبي طالب في احد مواقف نصرته ، وتهدد زعماء قريش بانه سينضم اليه اذا هم لم يحترموا له شيخوخته وجواره ، وانه جاء الى النبي (ص) بعد موت ابي طالب وقال له امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان ابو طالب حياً فانعمه وحلف له بانه لا يوصل اليه حتى يموت (١)

٤) وفي سورة الشعراء آيات يمكن استلهاها في تصوير هذه العصبية وتوكيدها وهي :

وأندر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان
عصوك فقل إني بريء مما تعملون . . .

٢١٤-٢١٦

فمع ان رسالة النبي (ص) عامة فان في هذا التخصيص دلالة على ما كان من اثر عصبية ذوي الارحام القريبة وتبعاتها ، ومن الممكن ان يلمح من حكمتها انه كان لموقف أكثر ذوي رحم النبي (ص) الأقربين الحجودي تأثير شديد في مقابلة أهل مكة الدعوة بالفتور والاستخفاف ، حيث اعتادوا ان يتناصر الاقربون في كل شيء ؛ ورأوا ان أولى الناس باتباع النبي (ص) هم اقرباؤه الأذنون استتباعاً لوثاقة عصبية ذوي الارحام ومقتضياتها . وهذا يدعم ما نحن بسبيله على ما هو المتبادر .

٥) وفي سورة التوبة آية عوتب فيها النبي (ص) والمسلمون على استغفارهم لذوي قرباهم من المشركين الميتين :

ما كان لآلبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرابي من بعد ما تبين لهم أصحاب الجحيم ...

١١٣

(١) - ابن هشام ج ١ ص ٣٣٢ وابن سعد ج ١ ص ١٩٥ ومبها يقوم في النفس

من شك في الروايتين فانها ليسا بعيدتين عن الاتساق مع ما كان من قوة العصبية العائلية .

حيث نلهم ان العصبية العائلية حدث بالنبي وبعض المسلمين الى الاستغفار لآناس
من ذوي رحمتهم ساقوا على الشرك ، وفي الكتاب توكيد للهدف الذي استهدفه القرآن
من اعتبار الوحدة الجديدة هي وحدة الاسلام ...

٦ (وفي سورتي الانعام والنساء آيات تأمر بالعدل والقسط دون أن يكون
للقرابة والرحم أي تأثير في ذلك ، مما يلهم ما كان من شدة عصبية العائلة او الأرحام
بمحيط قد تدفع افراد الوحدة الى الوقوف بجانب بعضهم مهما كان في ذلك من ظلم
واجحاف واضاعة حق للآخرين :

١ - وإذا قاتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ... الانعام ١٥٢

٣ - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او
الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا
وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ... النساء ١٣٥

٧ (واقدم كان يصدف أن يكون الابن او الأخت او الأب في صفوف المسلمين
والأب او الأخت او الابن كافرأ في صفوف الكفار في عهد السيرة النبوية ، فكانت
عصبية الأرحام القربية خاصة مما يواجهه المسلمون من المشاكل المخرجة ، حتى
اقتضت الحكمة الإيحاء بآيات التوبة ٢٣ - ٢٤ والمجادلة ٢٣ التي نقلناها في مطلع
الفصل ، بأسلوبها الشديد ليكون فيها زجر وتنبية قويان ، وفي هذا ما هو ظاهر
من توكيد ما كان لعصبية ذوي الأرحام القربية من اثر راسخ قوي في الناس .

٨ (وفي سورة المستحقة آيات جاءت عقب الآية الاولى التي نهت عن اتخاذ
الكفار اعداء الله واعداء المسلمين اولياء تضمنت تنبيهاً على ان الأرحام والاولاد لن
تغني شيئاً عند الله ودعوة للتأسي بإبراهيم (ص) والمؤمنين معه حيث عالوا قومهم
العداوة والبغضاء بسبب كفرهم بسبيل تخفيف اثر عصبيتها وتهوين شدة المشاكل
المخرجة التي كان المسلمون يواجهونها في عهد النبي (ص) بسببها على ما ذكرناه آنفاً :
لن تنفعكم أرحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير .
قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا براءء منكم واما
تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً

— ٦ —

(٩) وقد كان من المعروف في التقاليد العربية ان للقتيل وائماً او صاحب دم يطالب به ويكون حقه في هذا الطلب معترفاً به من الجميع ويكون له بهذا سلطان اي حق واجب . وقد أشارت الى هذا المعنى آية في سورة الاسراء في صدد النهي عن الاسراف في الثأر :

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ...

٣٣

والولي او صاحب الدم هذا انما يكون من عصابة القتل القريبة ، ومما كان يصدف انه لا يكون ابن القتل او اخاء او اباه بل يكون رئيس العائلة باعتباره ممثلاً للعائلة التي يعد القتل قتلها والدم دمها .

وفي الآية دلالة على أثر هذه العصبية وما كانت تسوغه من ثأر ، وما كان يحجره هذا من ثارات دون الوقوف عند حد القصاص .

(١٠) ومما يمكن ان يذكر كتقاليد من تقاليد هذه العصبية مسألة « العقل » وهي توزيع وجمع الدية عن قتيل ما اذا تم صلح او حكم قاض بدفع ديته والكف عن الثأر له بالدم . فالدرجة الاولى للعقل هي ان يتضامن ذووا القربى والأرحام في جمع الدية المطاوعة منهم مقابل الدم الذي اراقه احدهم . كذلك فان هذه الدية تدفع الى اهل القتل الذين هم ذوو رحمه وقرباه والذين تجعلهم تقاليد عصبية الارحام القريبة أصحاب الحق بدمه والسلطان المنصور في المطالبة به فتوزع عليهم . ومن هنا جاء جنوح الرجال الى اعتبار انفسهم أصحاب الحق في الأثر دون النساء والأطفال لانهم هم الغارمون على ما ذكرناه قبل

وفي سورة النساء آية في صدد دية قتيل الخطأ يمكن أن تلهم وجود هذا التقليد على الوجه الذي ذكره وخاصة في ذكرها وجوب تسليم الدية الى اهل القتل ، وهو تعبير يمكن ان يكون اوسع نطاقاً من اب او ام او ابن او أخت :

ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسامة الى أهله إلا أن يصدقوا

فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ...

٩٢

— ٤ —

هذا ، وتنبه على أن القرآن من ناحية أخرى احتفى بحفاوة غير يسيرة بحت المسامحة على البر بأقاربهم والعناية بهم في آيات مسكية ومدنية كما جعل ذوي الأرحام من المسامحة بعضهم أولى ببعض في الشؤون الحقوقية الأثرية . ومن هذه الآيات آيات البقرة ١٧٧ و ٢١٥ والنساء ٣٦ التي نقلناها في الفصل السابق ، ويسلك في هذا السلك آيات الموارث وقد نقلناها كذلك ، واليك بعض آيات أخرى :

١ — وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ...

النساء ٨

٢ — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ...

الأنفال ٧٥

٣ — إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ... النحل ٩٠

٤ — وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ...

الاسراء ٢٦

٥ — ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ...

النور ٢٢

٦ — النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ...

الاحزاب ٦

ففي هذه الآيات من ناحية ترديد لما كان من التوائق في صلوات القربى والعصبية بين ذوي الأرحام فيما يتبادر لنا ، ومن ناحية أخرى هو مما يتسق مع طبيعة الأشياء ، لأن الظاهرة التي نحن في صددنا متصلة بطبيعة الحياة الإنسانية في مختلف الأدوار والظروف والبيئات من حيث الأصل ، ولم تكن بيئة النبي (ص) وعصره شاذين فيها بطبيعة الحال ، وكل ما كان من أمر أنها كانت فيها قوة شديدة حيث كان ذلك هو المنسجم مع طبيعة الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها تلك البيئة في ذلك العصر وما قبله .

كان افراد كل قبيلة يتضامنون تجاه القبائل الأخرى في الحروب والدماء والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة ، بحيث كانوا يتناصرون ظالمين ومظلومين ، ويتعاونون على المسئوليات والمغارم ، وبحيث كان كل فرد من قبيلة يرى أن أي اعتداء يقع على احد افراد قبيلته إنما هو واقع عليه ، وأن من واجبه أن ينتصر له ويدفع عنه ، وان يثار له من المعتدي أو من أي فرد من افراد قبيلته ، وبحيث اذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن افراد كل قبيلة في الدفاع والهجوم مها كان الباعث ، حتى ولو كانت ميولهم وعواطفهم متغايرة . وفي القرآن آيات يمكن ان يستأنس بها في تثبيت هذه الصورة .

منها آيات تشير الى موقف المنافقين من بني قومهم الخالصين في الحروب التي كانت تقع بين المسلمين وبين المشركين :

١ — يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ...
آل عمران ١٥٦

٢ — وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تمالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ...
آل عمران ١٦٧

٣ — الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قاتلوا ... » ١٦٨

٤ — وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون الا فراراً ...

الاحزاب ١٣

٥ — يقولون ائمن رجعنا الى المدينة ليخرجننا الأعراب منها الأدل ...

المنافقون ٨

فآية آل عمران ١٦٧ تضمنت دعوة للمنافقين الى الاشتراك في وقعة أحد إن لم يكن في سبيل الله في سبيل الدفاع استجابة لداعي العصبية القبلية ، وجوابهم

بانهم لو تأكدوا من وقوع القتال لاستجابوا الى هذا الداعي وتضامنوا معهم (١).
وفي آيتي آل عمران ١٥٦ و ١٦٨ حكاية اقوال نرجح ان المنافقين سوغوا لانفسهم
قولها للمخلصين من بني قومهم بسائق هذه العصبية . وآية المنافقين تدل على أن
المنافقين قد خرجوا فعلا واشتركوا في احدى الغزوات ، وأن بعضهم قد اغتاز
من حادث ما فقال ما قال إرکاناً على ما يعرفه من قوة رابطة العصبية القبلية التي
تربط بين افراد قبيلته بقطع النظر عن اختلاف السيرة والعقيدة (٢) . وآية
الاحزاب تتضمن تقرير كون المنافقين قد تضامنوا ولو بالظاهر مع بني قومهم في
وقعة الخندق وعسكروا مع المسلمين في ظاهر المدينة .

وفي آيات سور المائدة ٥٥ - ٥٧ والانفال ٧٣ والمجادلة ٢٣ التي نقلناها سابقاً
ملهات تدعيمية ايضاً ، حيث شددت على المسلمين النهي عن موالة الكفار ، وحيث
يستلهم من سياقها وظروف نزولها أن المنهى عن موالاتهم هم القرشيون الذين تربط
بينهم وبين المهاجرين عصبية القبيلة ، كما يستلهم بطبيعة الحال أن هذه العصبية كانت
ما تزال قوية مؤثرة بالرغم مما كان من اختلاف في العقيدة، ومكائد واضطهادات
واضطرار الى الهجرة من مكة ...

وفي سورة النساء آيتان اخريان في صدد لجم هذه العصبية وأثرها :

١ - إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت
صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم
فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ... ٩٠

(١) ذكرت روايات السيرة ان شخصاً اسمه قزمان قاتل يوم احد قتالا شديداً
حتى قتل بضعة نفر من المشركين وجرح وحمل الى احصى الدور ؛ وجاء الناس
يعودونه ، وان أحدهم قال له إ بشر يا قزمان فاجابه بماذا أبشر فوالله ما قاتلت إلا
حمية عن قومي .

(٢) قائل القول زعيم المنافقين عبد الله بن أبي الخرزجي ، وقد قاله بسبب
ملاحظة وقعت بين قرشي ومدني واستصرخ كل منها قومه ، فوجدت الفرصة لما قال .
والحادثة في ذاتها انطوت على ما يستأنس به على صحة الصورة .

٢ - ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما رُدوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويؤتقوا اليكم السلم - ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأوائكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ... النساء ٩١

وفي الآيتين من حيث الأساس مظهر من مظاهر ما وصلت اليه قوة المسلمين بحيث صارت القبائل تخشى بأسهم وتتراف اليهم ؛ ومع هذه الرغبة في الفريقين الذين أشارت اليهما الآيتان فان الاول منها اشترط ان يكون التهادن وحسن الصلات بينه وبين المسلمين قائماً على اساس عدم تضامنه مع المسلمين ضد قومه ؛ أما الثاني فقد وقف موقف المتردد الحائر في ما ينبغي أن يختار من السلامة وحسن الصلات اللذين يرغب فيهما مع المسلمين او الاستجابة لداعي العصبية القبلية وتبديل موقفه من المسلمين بموقف العداء الصريح ...



ثالثاً عصبية التحالف القبلي او عصبية الأحراب

كثيراً ما كان قبيلتان أو اكثر تعقد بينها حلفاً وميثاقاً لتكون صفاً واحداً متسانداً ؛ فتنشأ عصبية بين هذه القبائل المتحالفة تدفعهم الى التضامن في الحروب والتعاون في تبعات الدماء ، فاذا دعى داعي الحرب نفر أفراد هذه القبائل ليكونوا صفاً واحداً ، واذا اعتدى معتد على إحدى هذه القبائل المتحالفة أو على بعضها هبوا الى النصر والثأر ، واذا تحملت قبيلة تبعه دماء رأت من حقها أن تستعين على حملها بخلفائها من القبائل الأخرى .

وفي القرآن آيات تشير الى هذا النوع من التحالف وما يوجد من عصبية بين القبائل المتحالفة وتدعم الصورة التي رسمناها لهذا النوع من العصبية .

فاليهود كانوا متحالفين مع الأوس والخزرج ، فريق منهم حالف الأوس وفريق حالف الخزرج ، وكان كل فريق يقف مع حليفه متسانداً متضامناً في ما يقع بينهم وبين الآخرين من حوادث وطواريء . والاصل مشار اليه في آيات سورة البقرة ٨٤ - ٨٥ التي نقلناها في فصل اليهود والتي تندد بهم لخالفهم شرائمهم وقتال بعضهم بعضاً وأسر بعضهم بعضاً ، لان هذا كان مما لا بد من حدوثه في حالة الحلف

القائمة مع فريق عدو لفريق آخر .

وقد اشير في بعض الآيات الى ثبات المنافقين من أهل المدينة في تحالفهم هذا ،
ووعدهم لليهود بالمناصرة اذا قوتلوا وبالتضامن معهم اذا أخرجوا وهي آية الحشر ١١
التي نقلناها كذلك في الفصل المذكور حيث كان المنافقون يتخذون الحلف وسيلة
للجهر في هذا الموقف .

على ان تمسك الأوس والخزرج بعصبيتهم الحلقية مع اليهود لم يكن قاصراً على
المنافقين منهم ، بل ظل المخلصون متأثرين بذلك مدة غير قصيرة كما يستلهم من توالي
النهى الموجه الى الذين آمنوا عن موالاته اليهود مما هو منطوق في آيات آل عمران
١١٨ - ١٢٠ والمائدة ٥١ التي نقلناها في فصل اليهود وفي الآيات التالية :

١ - لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك
فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ...

آل عمران ٢٨

٢ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين أتريدون
أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ...

النساء ١٤٤

وفي آيات الاحزاب ٢٦ - ٢٧ التي نقلناها سابقاً أيضاً تنطوي صورة لمخالفة
بين قبيلة يهودية وبين قريش واحزابها ، حيث ظهرت القبيلة اليهودية وهي بنو
قريظة هزلاً وفقاً لهذه المخالفة ضد المسلمين حينما قدموا يفتنون المدينة في الواقعة
المعروفة بالحنديق .

ولقد جاء ذكر « الاحزاب » في القرآن أكثر من مرة :

١ - ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ...

هود ١٧

٢ - والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الأحزاب من ينكر

بعضه ...

الرعد ٣٦

٣ - ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله

والاحزاب ٢٢

ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً ...

وليس من شك في أن كلمة « الاحزاب » تعني فرقاً او طوائف او قبائل متجزئة

متحالفة على أمر ما ، وآيتا هود والرعد قد تكونان عننا ما كان من تحزب الفرق

المختلفة ضد الدعوة النبوية ، غير أن آية الأَحزاب صريحة الدلالة على قصدتها قريشاً والقبائل المتحالفة معها التي جاءت الى غزو المدينة ؛ وبالتالي انها صريحة الدلالة على ما كان يقع من تحالف بين القبائل ولعل هذا كان أكبر ما وقع منه في الحجاز او من اكبره ، لان عدد الغزاة قد بلغ نحو عشرة آلاف على ما ذكرته روايات السيرة وهو عدد ضخم في تلك الظروف والبيئة .

- ٧ -

ولقد استمر هذا النوع من التحالف وتبعاته الى ما بعد البعثة النبوية حيث كان حلف اليهود مع قريش واحزابها ضد النبي (ص) وحيث كان النبي (ص) يعقد المواثيق والمعاهدات مع قبائل العرب التي ظلت متمسكة بشركها وجنحت الى المسالمة او رغبت في المهادنة بالاضافة الى ما كان يعقده مع اليهود ، وحيث كانت واجبات هذه المحالفات تراعى مراعاة دقيقة مما تلهمه آيات عديدة رأينا ان نوردها لان من الممكن ان يكون فيها بعض الملتهات لما كان يجري الامر عليه :

١ - أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ...

البقرة ١٠٠

٢ - ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً . إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...

النساء ٨٩ - ٩٠

٣ - آية النساء ٩٢ وقد نقلناها قبل .

٤ - إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فيهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ...

الانفال ٥٥ - ٥٦

٥ - والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ...

الانفال ٧٢

٦ - براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... التوبة ١

٧ - إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ... التوبة ٤

٨ - إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ... التوبة ٧

ومما يلفت النظر خاصة في صدد ما نحن فيه هو كون المعاهدات لمدة معينة . ولا ندري هل كان هذا مما كان يجري الأمر عليه في التحالف القبلي قبل البعثة أم لا ، وإن كنا نميل إلى النفي في الجواب ، لأن هناك روايات عربية تذكر أن الحلف القبلي كان يستمر جيلاً بعد جيل ولا ينتقض إلا بسبب أحداث جسيمة ، ويصبح صلة لاحقة متوارثة بين القبائل المتحالفة . وحلف قبائل اليهود في المدينة مع الأوس والخزرج لم يكن حديث عهد ، وإنما كان مستمراً في الإبقاء بعد الآباء إلى الهجرة النبوية ، وهذا التشديد القرآني في التنديد باستمرار هذا الحلف ، والأمر بقطعه يمكن أن يلها هذا الذي تقوله . أما المدة في المعاهدات التي عقدها النبي (ص) مع المشركين فيمكن أن يكون لوحظ فيها تطور ظروف الدعوة الإسلامية وأماكنها المقبلة .



ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن عصبية التحالف القبلي ليست أصلية ، وإنما هي طارئة ، وذلك عكس عصبية القبيلة وعصبية ذوي الأرحام القريبة ، فإنها أصلية تستمد وجودها من المصلحة المتحدة الطبيعية بين بني القبيلة الواحدة الذين يكونون في الغالب ذوي أرحام وقربى قد تباعدت بعض التباعد مع انسابهم إلى جده أعلى واحد ، ثم بين بني العائلة الواحدة أو العشيرة الواحدة أو البطن الواحد الذين تجمعهم صلة الدم والرحم القريبة . وعلى هذا فإن قوة العصبية والحمة فيها والاستجابة إليها والتأثر بها تكون على درجات اقواها عصبية ذوي الأرحام والتربى ، ثم عصبية القبيلة ثم عصبية الحلف القبلي . وهذا التفاوت التدريجي في القوة والحمة في العصبية وتقاليدها وأثرها متنسق مع طبائع الأشياء كما أن من الممكن أن يستلهم من الآيات التي نقلناها .

ونستطرد هنا إلى تصحيح خطأ يقع فيه بعض الباحثين في وصفهم العرب بالفردية، ويتناقض مع طبيعتهم الاجتماعية، وفي عزوهم ذلك إلى خالق آباءهم الأولين ولا سيما أبان بداوتهم. فإن في ما أوردناه دليلاً على أن تقايد التضامن الاجتماعي أو العصبية الاجتماعية كان راسخاً في العرب الأولين، وأنه كان ركناً من أركان حياتهم الاجتماعية إن لم يكن أقوى ركن فيها، لاغنى لهم عنه ولا معدى؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العصبية الاجتماعية سواء فيما بين ذوي الأرحام والقربى أو فيما بين أبناء القبيلة أو فيما بين القبائل المتعددة المتحالفة حاجة طبيعية في حياة البدو أو الأمة التي في طور الكيان البدوي قليلاً أو كثيراً بوجه عام، لأنه لا يمكن حفظ التوازن والحقوق والدماء في هذه الحياة أو الطور بدونها. وإذا كان من مجال للنقد بالنسبة للعرب فأنما هو في رسوخ العصبية الاجتماعية الضيقة النطاق التي لم تكن تعدى الوحدات الاجتماعية الأولى كالعائلة والعشيرة والقبيلة رسوخاً كان عاملاً من عوامل التفكك الذي حل في العرب في القرون الإسلامية الأولى كما أشرنا إلى ذلك في مطلع هذا الفصل.

على أنه قد يكون من الحق أن يقال إن هذا ليس شيئاً خاصاً بالعرب أو بالطبيعة البدوية العربية، وإنما هو عام في البشر الذين مروا جميعهم في هذا الدور، وأن ذلك التفكك قد كانت له عوامل أخرى أثرت فيها العصبية القبلية الضيقة النطاق إثارة متعمدة لغايات سياسية وحزبية، في ظروف لم تكن قد رسخت فيها بعد الأخوة العامة الشاملة التي دعا إليها القرآن وجاهد النبي (ص) في سبيل إقامتها مقام تلك العصبية رسوخاً كافياً يصعب زلزالته.

رابعاً عصبية الولاء:

كان من عادات العرب أن يلتحق أحد أفراد قبيلة بشخص من قبيلة أخرى ويتولاه، فيصبح كأنه من ذوي رحمه وقبيلته بالولاء إذا قبل الشخص هذا الالتحاق، وحينئذ يكون على الملتحق وله جميع تبعات عصبية الملتحق به الخاصة والعامة، وكان

يسمى الملتحق باسم « مولى » فلان الذي التحق به . وقد أشارت بعض آيات القرآن الى هذه الصورة . ففي سورة الاحزاب آية تستنكر التبني وانتساب امرء لاسم غير اسم ابيه الاصلي ، وتأمر بنسبته الى ابيه الاصلي وضماً للامر في نصابه الطبيعي . وقد سمح في هذه الآية بأن يكون الابن بالتبني مولى المعتنق اذا لم يعرف ابوه :

وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فات لم تعاصوا آباءهم فآخوانكم في الدين ومواليكم

الاحزاب ٤ - ٥

ففي هذه الاشارة ما يؤيد وجود تقليد الولاء الذي تواترت بوجوده الروايات كما هو المتبادر .

ونبه على أن كلمة « مولى » هنا ليست في معنى « مولى » التي كانت تطاق احياناً على الارقاء بل هي في المعنى الذي اشرنا اليه ، ووصف الاءبناء بالتبني في حالة معرفة آباءهم بالاخوان والموالي قرينة حاسمة .

وقد كان هذا الولاء يقوم احياناً على أساس تعاطي العهد والميثاق على أن يكون المتولى جزءاً من المتولى وان يتحمل معه سائر تبعاته العصبية ، وعلى أن يكون المتولى كذلك بالنسبة إلى مولاه ، وقد أورد الخازن مأثوراً عن هذا الميثاق الذي كان يشهد عليه الملاء حيث كان يقول الواحد الآخر : دمي دمك ، وهدمي هدمك ، وتأري تأرك ، وحربي حربك ، وسلمي سلمك ، ترثي وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ، وتعقل عني وأعقل عنك (١) » وقد قال الخازن وغيره من المفسرين ان جملة «والذين عقدت ايمانكم» في هذه الآية :

واكمل جعلنا موالي (٢) مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً . . . النساء ٨٣

قد عنت فيما عنته مواليك الولاء وعقوده ، وان كلاً من المتولى والمتولى كان يرث صاحبه بمقدار السدس ، وان هذا كان ثابتاً الى ما بعد الهجرة النبوية ، وأيد

(١) العقل هو دفع دية القتيل التي تستحق الدفع .

(٢) الكلمة هنا بمعنى الوارثين .

في هذه الآية ثم نسخ وحصر الاثر بين ذوي الارحام في آيات الموارث .
 وفي سورة الاحزاب آية قال بعض المفسرين انها هي التي نسخت توارث الاولاد وهي :
 النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وازواجه أمهاتهم وأولو الارحام بعضهم أولى
 ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً كان
 ذلك في الكتاب مسطوراً . . .

حيث تقرر أن اولو الارحام من المؤمنين هم أولى ببعضهم في الاثر ، وتجعل
 فعل المعروف للاولياء اختيارياً ، وبعبارة اخرى تنقل درجة المولى من نطاق الاثر
 إلى نطاق المنح والهبة . فيمكن والحالة هذه ان يقال ان هذه الآية تلهم وجود
 التقليد وتبعاته على النحو الذي ذكرناه .

- ١١ -

ولم يكن الولاء مقصوراً على الافراد ؛ بل كثيراً ما كان يلتحق بطن أو
 عائلة من قبيلة بقبيلة اخرى . بل كان يصدف ان تلتحق قبيلة برمتها بقبيلة اخرى
 على طريقة الولاء ، فيكون أفرادها « موالى » القبيلة الجديدة ، وتقطع تبعاتها ازاء
 وحدتها الاولى ، وتنتقل اليها تبعات القبيلة الجديدة العصبية من حروب ودماء وعقل ومصالح
 مشتركة اخرى . وفي كتب السيرة والتاريخ والترجمة أسماء كثيرين حينئذ كرون
 تذكر أسماء قبائلهم بالولاء فيقال مثلاً القرشي ولاءً أو الثقيفي ولاءً ويراد بذلك هذا
 الولاء الذي نشير اليه وليس معنى العبودية والرق . ولعل في ورود كلمة اولياء في آية
 الاحزاب التي نقلناها الآن قرينة ما على ولاء الجمع مثل ما فيها من قرينة على ولاء الافراد .
 ولقد ذكرت كلمة « المولى » في القرآن كثيراً واريدها على الاكثر « النصير »
 او « الخليف » . وترى المعنى الذي تحمله هاتان الكلمتان منسجماً مع المعنى الذي ذكرناه
 لكلمة المولى في الامثلة القرآنية الآتية :

- ١ - يدعوا من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعوا
 لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير . . . الحج ١٢ / ١٣
- ٢ - واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير . . . الحج ٧٨
- ٣ - يوم لا يعني مولى عن مولى شيئاً . . . الدخان ٤١

٤ — ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم . . . محمد ١١

٥ — إن تتوبا إلى الله فقد صغت (١) قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه

وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . . . التحريم ٤
ولعل في آية المدخان ما يبرز المعنى الذي نمن في صدد تقريره إبرازاً قوياً لأن فيها
أشارة إلى تبادل الولاء بين شخصين وتسمية كل منهما مولى الآخر وهو الظاهرة
الجوهريّة في هذا التقليد .

والغالب في التحاق فرد بآخر أو قبيلة بقبيلة أخرى على طريق الولاء أن
يكون الملتحق أضعف من الملتحق به ، وأن يبتني عنده المنعة والقوة والعزة . وقد
جاء هذا المعنى في إحدى آيات سورة الاسراء حيث تلهم أن اتخذ المولى انما يكون
في حالة الضعف او الحاجة او الذل كما ترى فيها .

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي

١١١

من الذل وكبره تكبيراً . . .

ومعلوم أن العرب بعد الاسلام قد اطلقوا تعبير « الموالى » على غير العرب من

المسلمين . ومن الواضح أن هذا الاطلاق قد استمد من مفهوم هذا التعبير التقليدي
عند العرب قبل البعثة ، فالعرب المسلمون اعتبروا الذين اعتنقوا الاسلام من غيرهم
انما التحقوا بهم أو اتسبوا اليهم التحاق ولاء فاطلقوا هذا التعبير عليهم جرياً على
عادتهم التقليدية فيه . وإذا كان العرب قد نظروا الى الموالى نظر الرفيع او القوى
لان هو دونه او نظر المتبوع للتابع ، فان هذا يرجع الى ما في مفهوم حلف الولاء أو
رابطة الولاء من هذا المعنى على ما هو المتبادر .

- ١٢ -

خامساً عصبية الجوار :

وقد كان من عادات العرب ان يطلب شخص من آخر ان يجيره أي أن يجعله في حمايته،

ويدفع عنه البغي والظلم . فاذا قبل المستجار به أن يجير المستجير أعلن ذلك على ولاء

(١) اي مالت ويراد بالجملة أن تتوبا فتكون قلوبكم قد رجعت عن ما بدا منها

وقيل فقد حقت عليكم التوبة لانه بدر منكم شيء من الميل عن جادة الصواب .

- ١٧٤ -

من الناس ليكونوا على بينة من الأعراس ، وأصبح المستجير في ذمته و « جواره » كأنه من ذوي رحمه أو قبيلته ، يتمتع بحمايته بما يحمي به عائلته أو قبيلته ؛ وكذلك يصبح على كل من يتضامن مع الحجير عصبية ولا سيما عصبية الرحم والقربى واجب حماية المستجير الذي أصبح جاراً لهم بعد أن يكون رئيسهم قد أجاره ؛ ويحامي الناس حينئذ المستجير لما يكون له من حماية وعصبية من قبل المستجار به وجماعته . والغالب في الجوار أن يطلبه ضعيف في عصبية ؛ وقد يطلبه شخص بعيد عن عصبية إذا خشي الظلم في أرض هو غريب فيها . . .

وأحياناً يمين المستجير الشخص أو القبيلة التي يطلب حماية منها بحيث يقول : أنا عائد بك أو مستجير بك من فلان أو من القبيلة الفلانية ، أو يسأله ما إذا كان يقبل أن يحجيره على فلان أو على القبيلة الفلانية .

ولم يكن كل شخص يقبل أن يحجيره أي شخص آخر أو على أي شخص أو قبيلة . فالناس يعرفون أقدارهم وقواهم ، ولا يورطون أنفسهم فيما لا قبل لهم به ، لأنهم كانوا يرون في ذمة الجوار وعصبية امرأ خطيراً فيه كرامتهم بل وحياتهم ومماتهم أيضاً . ويظل الجوار مرعياً إلى أن يرده المستجير إلى صاحبه الذي أجاره ، ويبرئ له ذمته وجواره على ملاء من الناس ، حتى إذا اعتدى عليه بعد ذلك لا يتحمل الحجير تبعه هذا الاعتداء ؛ أو إلى أن يبلغ المستجير مأمنه إذا كان غريباً في أرض ، وكانت له عصبية تحميه في أرضه .

وفي القرآن بضع آيات ذكر فيها « الجوار » بالمعنى الذي عنيناه ، وتساعد على تثبيت شيء من الصورة التي رسمناها . منها ما أذن للنبي (ص) فيها بأجارة من يستجير به من المشركين حتى يلقاه ويسمع منه كلام الله ثم يكون في ذمته وجواره إلى أن يبلغ مأمنه :

وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . . .

فقد أخذ المشركين يخشون بأس النبي (ص) بعد أن قوي وفتح مكة وأذن المشركين ببراءة الله ورسوله منهم ، وصاروا يرغبون في الوفاة عليه فجاروا في

أمرهم وابلغوا النبي (ص) حيرتهم فنزلت الآية ، وفيها صورة لأجارة المستجير الذي ليس له عصبية في أرض على النحو الذي شرحناه . ومنها ماورد في سياق مشاهد غزوة بدر :

وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ... الانفال ٤٨

حيث حكت انها قيلت لقريش حينما أزمعوا الخروج لحماية قافلتهن من النبي (ص) ، وكان بينهم وبين بني كنانة دماء نخافوا ان يأتوهم من خلفهم فقال لهم الشيطان سراقه ابن مالك وكان من زعماء كنانة انا جار لكم من كنانة فلن تروا منها ماتكرهون؛ فخرجوا وكانت واقعة بدر الكبرى . (١) وتعبر « إني جار لكم » هو من تعابير الجوار التقليدية حيث يتقدم من يريد أن يحمي طالب جواره فيعلن أنه جار فلان... وهناك ثلاث آيات اخرى في صدد اثبات عظمة الله وقوته ، ولكنها تحتوي كلمة الاجارة ومشتقاتها بمعنى الجوار ومفهومه الذي نحن في صدد تقريره :

١ - قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ... المؤمنون ٨٨

٢ - قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن مي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ... الملك ٢٨

٣ - قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً... الجن ٢٢ وتعبر « يجير ولا يجار عليه » أيضاً من تعابير الجوار التقليدية إذا ما يريد مدح سيد من سادات العرب ، والتنويه بعزته وقوته ، حيث يعنى ان السيد يقدر على اجارة من يشاء ولكن أحداً لا يجراً على تحديه بأجارة عدوله .

- ١٣ -

سادساً عصبية التقاليد :

وهذا النوع ليس مما كان معروفاً باسمه هذا ، وإنما كان معروفاً بمفهومه . والمقصد

(١) وفي الروايات ان ابليس تمثل لقريش في صورة سراقه بن مالك ليغريهم وليغريهم مع ان كلمة الشيطان تطلق على بغاة الجن والانس وعلى ابليس ايضاً

به هو التعصب للعادات والتقاليد المتوارثة وشدة التمسك بها . وقد كان هذا مما هو راسخ في المجتمع العربي قبل البعثة ، بحيث كان يعد فضيلة لا معدى عنها ، وجزءاً من حياة المجتمع لا ينفصل عنه ، ولو أدى إلى الحروب واراقة الدماء والمواقف المهلكة المخرجة .

وفي القرآن آيات عديدة تشير الى مفهوم هذه العصبية في معرض التنديد والتقريع للمشركين والمناوئين للدعوة النبوية والكائدين لها . وهي تصور باساليها المختلفة شدة تمسك العرب قبل البعثة بتقاليدهم المتوارثة أباً عن جد ، وعدم العدول عنها مهما ظهر باطلها ، ووضح ضررها وشرها كما ترى في الآيات التالية :

١ — وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ... البقرة ١٧٠

٢ — وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعاصون شيئاً ولا يهتدون ... المائدة ١٠٤

٣ — وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها ...

الأعراف ٢٨

٤ — وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ...

لقمان ٢١

٥ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا ورجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ... سبأ ٤٣

٦ — قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ...

الزخرف ٢٢

وقد بلغ من قوة هذه العصبية فيهم ان اصبحت ديناً ، وان اخذوا يرون ان ما هم عليه من عادات وتقاليد هو من أوامر الله كما حكمت آية الاعراف (٢٨) وكما حكمت الآيات التالية :

١ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه

٢ - وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا

آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء... .

حيث كان المشركون يحتجون بأن ما هم عليه من تقاليد دينية متنوعة هي من مشيئة الله ورضاه ؛ لانها لو لم تكن كذلك لمنعهم عنها... . وفي أقوالهم المحكية في آيات البقرة والمائدة ولقمان وسبأ والزخرف ما يفيد أنهم كانوا يعتبرون ما هم عليه من تقاليد هو الأهدى والأصلح وقد توارثوها أباً عن جد، وأن دعوة النبي (ص) تستهدف صدمهم عن ما هو الأهدى والأصلح .

- ١٤ -

وهذه الآيات تفسر لنا شيئاً من ذلك الموقف الشديد المؤذي الذي وقفه أهل مكة من الدعوة الإسلامية وصاحبها وضعفاء المسلمين ، فان قوة عصبية التقاليد كانت من العوامل المؤثرة في ذلك ، حتى انها حالت دون اهتداء كثير من ذوي قربى النبي (ص) الذين كانوا ينصرونه ويدفعون عنه عصبية وفي مقدمتهم عمه وحاميه ابو طالب ، وغلبتهم على امرهم بالرغم عن معرفتهم بصدق النبي (ص) وعظم اخلاقه وصفاء قلبه ؛ وتيقنهم أنه لا يمكن أن يدعو الى باطل ، ولا يمكن ان يفترى ما يقوله ، وبالرغم عن ما كان لهم من الفخر العظيم في ظهوره ونجاح دعوته وكثرة الناس الذين يستجيبون له ، وبالرغم عن ما كان لموقفهم من تأثير ايجابي غير يسير في الموقف الجحودي الذي وقفه اهل مكة منه ، بل بلغ الأمر الى ان يشذ احد اعمام النبي (ص) عن تقاليد عصبية الرحم وان يقف في صفوف المناوئين لابن اخيه والكائدين له تعصباً للتقاليد الدينية الموروثة

وفي سورة القصص حكاية لقول بعض زعماء المشركين المعتادين :

وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا... . ٥٧

حيث تلهم ان القائلين كانوا يعترفون بأن ما جاء به النبي (ص) هدى ولكنهم كانوا يخافون ان هم تخلوا عن تقاليدهم أن يفقدوا مزية حرمهم المادية والمعنوية . وكثير من الذين أسلموا انما أسلموا ادراً للخطر أو جلباً للنفع ، وفي نفوسهم

ما فيها من الحياء والألم لتخليهم عن عاداتهم وتقاليدهم وما كان عليه آبائهم ، ولم يحسن إسلامهم الا بعد ان مضى عليهم ربح من الزمن ، وبعد ان أصبحت الدعوة الاسلامية عامة جارفة ، وهؤلاء او من هؤلاء من سماهم القرآن باسم « المؤلفة قلوبهم » ولعل في آيات الأحزاب ٣٦ - ٤٠ التي نقلناها في بحث التبي والتبني والتي نزلت في صدد زواج النبي (ص) من مطلقة ابنه بالتبني صورة قوية لقوة عصبية التقاليد وأثرها في بيئة النبي (ص) وعصره . فالذي يتمعن في الآيات يرى أولاً انها تمهد بوجوب اطاعة الله ورسوله ، وانهم اذا قضاوا أمراً فانه لا يبقى للمؤمن حق الخيار فيه . وظاهر ان ذلك مصروف الى إيجاب الطاعة في التخلي عن ما يأمر الله ورسوله بالتخلي عنه من التقاليد عامة وتقليد التبي خاصة . وفي صيغة الآيات قوة يمكن ان يلمس منها ما كان للتقليد من قوة ورسوخ في نفوس الناس جميعاً والمؤمنون والمخلصون على السواء ويرى ثانياً أن النبي (ص) نفسه كان مستردداً في الاقدام فضلاً عن أنه لم يكن ليقدّم غيره ، وأنه كان يتهمب من رد فعل الغاء تقليد التبي وتزوج المتبني بمطلقة متبنيه في الناس ؛ وقد احتوت الآيات شيئاً من العتاب واللوم من جهة وتأيداً للنبي (ص) وتبريراً من جهة اخرى مما ينطوي فيه كذلك قوة دلالة على ما كان للتقليد من أثر راسخ في النفوس .

ولقد اشتبه في وقوع حركة حربية من قبل سرية من سرايا النبي (ص) الأولى بعد الهجرة في اول يوم من ايام الشهر الحرام ، فأنار المشركون نجيحة كبيرة على المسامين لأنهم خرقوا حرمة هذا الشهر المقدسة وأثرت هذه النجيحة في عامة المسامين فاندججوا في النقد والتساؤل مما أشارت اليه إحدى الآيات :

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبيرٌ وسدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبرٌ عند الله والفتنة أكبرٌ من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم البقرة ٢١٧-٢١٨

وبلاحظ قوة الآية الأولى التبريرية للقتال في الشهر الحرام وما فيها من بيان
خطر المشركين على المسلمين وسوء نواياهم نحوهم ، ومن تبرير ما فعله المجاهدون
الذين لم يكونوا يرجون إلا رحمة الله ، وفي تطمينهم برحمة الله وغفرانه . ففي كل
هذا صورة قوية لما كانت عليه عصبية التقاليد اقتضت حكمة التنزيل أن تهدأ في
المسلمين بهذا الأسلوب القوي الحكيم .

وانه لمن الممكن ان تفهم من هذه الآيات وغيرها شيئاً من الحكمة التي اقتضت
الابقاء على كثير من التقاليد التي كان عليها العرب قبل البعثة ، سواء منها ما كان
يتصل بحياتهم الاجتماعية والعائلية ، او ما كان له صبغة دينية وطقسية كرمي الجمار
والطواف بين الصفا والمروة واستلام الحجر الأسود وتقبيله والوقوف في عرفات
وعند المشعر الحرام وذبح القرابين وتحريم الصيد وحرمة الاشهر الحرم والتسري
بالاماء بدون تحديد ، والبقاء على الحالة الحاضرة في الرق ، والسباح بأربع زوجات
الخ ، فقد كان رسوخ التقاليد الموروثة وتعصب الناس لها ، واعتبارهم اياها جزءاً
من كياناتهم الاجتماعي والديني شديداً الى الدرجة التي كان الغاؤها من الصعوبة
بمكان ، وكان يمكن ان يكثر بسببه العثرات والعقبات في سبيل انتشار الدعوة
الاسلامية واقبال الناس عليها والدخول تحت لوائها ، فالغى ما لا بد من الغائه مما كان
يتناقض مع اسس الدعوة واهدافها السامية ، او كان فيه قبح او فحش ينبو عنه
الحس والذوق ، او ما كان متناقضاً مع المصلحة العامة من التقاليد القديمة كالزواج
من امرأة الأب وجمع الأختين ، والزنا والتخادن والمسافحة ، والطواف العاري
والذبح عند الانصاب ، وحرمة صيد البحر ، وتحريم اكل لحوم القرابين واطعامها
للفقراء ؛ واكتفى بتهذيب الباقي تهذيباً يجعله مفيداً وصالحاً ومنسجماً مع تلك
الأسس والأهداف او غير متناقض معها وخاصة ابقاء تقاليد الحج التي فيها منافع
عظيمة متنوعة للمسلمين ومهبط وحي الله معاً . ووضعت أسس تشريعية تسمح
بالتصرف بما يكون هو الأصلاح والأعدل والأفضل مما كان موجوداً كالوحدة
في الزواج اذا غلب احتمال الجور ، وكترك أمر الأسرى للسلطان يمن عليهم او
يفادهم فيقضى بذلك على الرق في المستقبل ، الخ الخ

الفصل الرابع

في الحج والاشهر الحرم

سبب وضع هذا الفصل في باب الحياة الاجتماعية — موضوعا الفصل — الحج والكعبة والآيات القرآنية فيها — دلالة حفاوة القرآن — استدلالات قرآنية على كون الحج وتقاليده والكعبة وحرمتها مما كان قبل البعثة — استدلالات قرآنية على تداول العرب صلة ابراهيم (ص) بالكعبة وتقاليد الحج وأمن الحرم — استدلالات قرآنية على ما كان لاهل مكة من مركز خاص بسبب الحج والكعبة — أشهر الحج ومداهها وحرمتها — بدعة النسيء ومداهها — وقفة عرفات ويوم الحج الاكبر — الافاضة والاجازة — رمي الجمرات ومجالس المفـاخرة في منى — الطواف حول الكعبة — الحلق والتقصير — الاحرام — الصفا والمروة — الهدى والقائد — تحريم الصيد وحالة الحرم — سقاية الحاج ورفادته وعمارة المسجد الحرام — اسواق الحج وأثرها — الأشهر الحرم ومداهها والآيات القرآنية فيها — استدلالات قرآنية على تقليد حرمتها — خطورة التقليد وأثره في حياة العرب — ماهية الاشهر الحرم واولياتها — رأي في بعد غاية التقليد ودلالته

— ١ —

قد يبدو أن هذا الموضوع متصل بحياة العرب الدينية ومظاهرها اكثر ، ومن الأولى ان يبحث في باب العقائد والأديان ، غير اننا رأينا ان يكون فصلا في باب الحياة الاجتماعية لأن لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعي ، وكان له من أجل ذلك أثر كبير في حياتهم الاجتماعية . هذا اولاً وثانياً لأنه كان شاملاً للعرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية ، حيث كانوا يفتدون الى منطقة مكة — البيت الحرام — من كل صوب وحب ، فيلتقون في موسم الحج واسواقه ؛ وفي ظل أشهره الحرم ، يجتمعون ويتعارفون ، ويتبايعون ويتشاورون ، ويتناشدون الاشعار ، ويعقدون

المجالس للمفاخرات وحل المشاكل ؛ ويخطب فيه مصانع الخطباء ... وفي كل ذلك مظهر قوي بارز من المظاهر الاجتماعية . وثالثاً لأنه سنحت للعرب في ظروفه — وخاصة قبيل البعثة النبوية — فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية وأدبية ؛ وان كان من الجاز ان تكون قد استمدت من عوامل اخرى سياسية وفكرية ونفسية .

وسيكون هذا الفصل مؤلفاً كما جاء في عنوانه من موضوعين رئيسيين ، وان كانا متصلين ببعضهما : الاول الحج والثاني الأشهر الحرم .

الحج — ٢ —

في القرآن الكريم آيات عديدة تشير الى الحج ومناسكه وتقاليده ومنافعه ، والكعبة البيت الحرام وحرمتها وأمن منطقتها نوردها في ما يلي :

١ — آيات البقرة ١٢٥ — ١٢٩ التي نقلناها في بحث اصل سكان بيثة النبي (ص) في الباب الاول .

٢ — قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ... البقرة ١٤٤

٣ — ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه لالحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون ولا أنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ...

البقرة ١٤٩ — ١٥٠

٤ — ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه

البقرة ١٥٨

٥ — ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوه فيه فان قاتلوه فقاتلوه

كذلك جزاء الكافرين ...

البقرة ١٩١

٦ — يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ...

البقرة ١٨٩

٧ — وأتوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي (١) ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله (٢) فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك (٣) فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب . الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذاكم أباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب . واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه إن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم تخشرون ...

البقرة ١٩٥ — ٢٠٢

٨ — قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن أول

(١) الهدي = القرбан او الاضحية .

(٢) محله = المسكان الذي لا يحل الذبح الا فيه

(٣) قربان

بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم
ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر
فإن الله غني عن العالمين ...

٩٥-٩٧

٩ - يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا
القلائد (١) ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم
فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ...

المائدة ٢

١٠ - جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي
والقلائد ...

المائدة ٧٧

١١ - وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا
أولياءه إن أوليائه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند
البيت الا مكاءً وتصدية (٢) فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ...

الانفال ٣٤ - ٣٥

١٢ - وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من
المشركين ورسوله ...

التوبة ٣

١٣ - ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر
أولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله
واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا
من المهتدين . أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر
وجاهد في سبيل الله ...

التوبة ١٧ - ١٩

١٤ - يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام

(١) القلائد كناية عن الهدي الذي يوضع في عنقه القلادة إشارة الى كونه
قرباناً لله .

(٢) قال المفسرون ان المكاء هو الصغير والتصدية هي التصفيق .

بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، إن الله عليم حكيم ...

التوبة ٢٨

١٥ — واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنِي أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم. ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ...

إبراهيم ٣٥-٣٧

١٦ — ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تقصيرهم (١) وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق. ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حذفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ...

الحج ٢٥-٣٣

١٧ — والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها (٢) فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. إن ينال الله لحوماً ولا دماًؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ...

الحج ٣٦-٣٧

(١) انزبلوا اوساخهم .

(٢) فاذا سقطت الى الارض اي ماتت بعد الذبح

- ١٨ — قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء
وأمرت أن أكون من المسلمين ... النمل ٩١
- ١٩ — وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً
آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء ... القصص ٥٦
- ٢٠ — أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفالباطل
يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ... العنكبوت ٦٧
- ٢١ — هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهاضي معكوفاً أن يبلغ
محله ... الفتح ٢٥
- ٢٢ — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء
الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون ... الفتح ٢٧
- ٢٣ — فاعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ...
قريش ٣ — ٤

— ٣ —

ولا يستكثرون القاريء الآيات التي أوردناها ؛ ولقد تعمدنا نقل ما في القرآن
جميعه في هذا الصدد لأننا نريد أن ندال به على ما كان للحج من خطورة في حياة
العرب وعلى ما أسبغه القرآن على هذه الخطورة من حفاوة .
والآيات تحتوي مواضيع عديدة ، وتستهدف أهدافاً متنوعة . وفيها كثير جاء
في معرض تشريع مناسك الحج في الإسلام .
غير أنها جميعها تحتوي دلالات صريحة أو قرائن قوية على كثير مما يتصل ببيئة
النبي (ص) وعصره قبل البعثة من شؤون الحج ومناسكه والكعبة وحرمتها ، وما
كان يتداوله العرب بشأن أولياتها .

(١) آيات النمل ٩١ والقصص ٥٧ والعنكبوت ٦٧ وقريش ٣ — ٤ تتضمن
دلالات صريحة على أن أمن الحرم والبلدة الحرام والبيت الحرام (وكلها تهدف الى
حرمة منطقة مكة تبعاً لقدسية الكعبة التي هي فيها وحرمتها) مما كان متعارفاً عليه
قبل البعثة ، ومما كان أهل مكة يجنون من ورائه الفوائد العظيمة ، مادية ومعنوية ،

واقتصادية واجتماعية . وهذا المعنى الاخير خاصة مندمج في آية المائدة ٩٧ مع شمول هذه الفوائد للناس او بالاحرى للعرب الذين هم ناس ذلك العصر والبيئة حيث ذكرت ان الله قد جعل البيت الحرام عاملاً قوياً في اقامة الناس اودهم وحياتهم .

(٢) وآية البقرة ١٩١ تحتوي دلالة صريحة على ان القتال في منطقة المسجد الحرام مما كان محظوراً في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بحيث اقر الاسلام ذلك وناط الأخلال بهذه الحرمه باخلالها من قبل المشركين حيث يباح للمسلمين مقابلة الاعتداء بمثله على ما ذكرته الآيات التالية لهذه الآية ايضاً .

(٣) وآيات البقرة ٤٤ و ١٤٩ - ١٥٠ في القبلة تدلهم ما كان للكعبة من حيز عظيم وحرمة بالغة في نفوس العرب ، فتمددل النبي(ص) عن الاتجاه اليها في الصلاة بسبب ما لقيه من جحود قومه وما احاطوها به من مظاهر الشرك ، ولكن الرغبة في الاتجاه اليها ظلت تعتلج في نفسه ، وظل يرى في ذلك وضعاً للأمر في نصابه الحق ، لانها أول بيت وضع لعبادة الله للناس ، وأقدم من المسجد الأقصى ، ومتصلة براهيم (ص) الذي يدعو الى ملته ؛ وان هذا كله مما كان يعرفه العرب ، الذين كانت من اجل ذلك مهوى افئدتهم ومثابرتهم جميعاً ، وكان يقاب بعصره في السماء حيناً بعد آخر آملاً بالهام الله وأذنه ، فحقيق الله أمله ، وولاه القبلة التي يرضاها وهي الكعبة . وبلغت النظر خاصة الى عبارة لئلا يكون للناس عليكم حجة حيث تتضمن قرينة قوية على أن الاستمرار في الاتجاه الى المسجد الأقصى مع ما تشغله الكعبة في نفوس العرب من الحيز العظيم كان يثير ألماً أو حيرة في الناس أي في العرب الذين هم ناس بيئته النبي (ص) مسلمين وغير مسلمين ، فاقترض الحكمة مراعاة ذلك حتى لا يبق حجة للتبرم او الحيرة أو الانتقاد أو الألم من هؤلاء أو هؤلاء

(٤) ان اسلوب آيات آل عمران ٩٥ - ٩٧ يتضمن قرينة قوية على ان حج البيت على المستطيع هو استمرار لفرض إلهي قديم على الناس ومعترف به وممارس من بعضهم ، فهو اول بيت وضع للناس فيه البركة والهدى وفيه مقام ابراهيم (ص) وبلغت النظر خاصة الى مدى تعبير « الناس » في هذا المقام حيث تستقر فيه قوة القرينة .

(٥) كذلك آيات الحج ٣٥ - ٣٣ فإنها تتضمن قرينة قوية في أسلوبها ومضمونها إن لم نقل دلالة صريحة أولاً على أن العرب جميعهم أو القسم الأكبر منهم وسواء منهم الدانون والقاصون كانوا يأتون إلى مكة ويمارسون مع أهل منطقتها مناسك الحج قبل البعثة ، وثانياً على أنهم كانوا يتداولون خبر اتصال الحج ومناسك إبراهيم (ص) . فهي تحمل على الكفار بسبب صدمهم عن المسجد الحرام في حين أن الله قد جعله مثابة للناس جميعاً مقيمهم وباديهم منذ بناء إبراهيم (ص) وأذن في الناس بالحج إليه ، فيأتون إليه من كل فج عميق ، مشاةً وركباناً ، رجالاً ونساءً ليقوموا بمناسكهم ، ويوفوا ما عليهم من ندور ، وليطوفوا بالبیت العتيق ، ويتمتعوا ويشهدوا منافعهم العظمى في موسمهم . ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٢٧) فإنها تؤيد بقوة ما ذكرته الروايات من أن الذين كانوا يشهدون موسم الحج ويؤدوا مناسكهم ويفدون إلى أسواقه لم يكونوا قاصرين على أهل منطقة مكة أو القطر الحجازي ، ثم على المشركين من العرب ، بل كان منهم من يأتي من الأندلس القاصية كاليمن ونجد ومشارف الشام كما كان منهم الموحدون الحنفاء أو الصابئون والنصارى واليهود منهم من كان يأتي للأندلس ، ومنهم من كان يأتي للتبشير ومنهم من كان يأتي للمفاخرة والخطابة وإنشاد القصائد ، ومنهم من كان يأتي بسبيل حل مشاكل لا يمكن حلها إلا في ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه ؛ بالإضافة إلى أن الأكثر كان يأتي إلى زيارة الكعبة وإداء مناسك الحج التي كانت من الحرمات العربية العامة .

(٦) وآيات التوبة ٢٧ - ١٩ والانفال ٣٥ - ٣٥ صريحة الدلالة على أن المشركين أو بتعبير آخر العرب كانوا قبل البعثة يمارسون بعض الطقوس عند الكعبة ، وأن منهم من كان مختصاً بمهمة عمارتها وخدمتها كما كان منهم المختص بسقاية الحاج . وهذا يعني أن مناسك الحج وتقاليده مما كان يمارس قبل البعثة طبعاً ، وآية التوبة (٣٨) تدل بصراحة على أن المشركين من العرب ظلوا يؤمنون بالمسجد الحرام ويقومون بتقاليده الحج إلى ما بعد فتح مكة بمدة ما استمراراً لممارستهم السابقة .

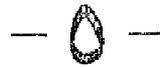
(٨) إن العبارات الواردة بشأن مقام ابراهيم (ص) وآياته البيئات - أي علاماته الظاهرة أو الواضحة - في آيات البقرة ١٢٥ — ١٢٩ وآل عمران ٩٥ - ٩٧ تتضمن قرينة قوية إن لم نقل دلالة صريحة على ان العرب قبل البعثة كانوا يتداولون خبر بناء ابراهيم (ص) للكعبة ، وبالتالي خبر صلته بتقاليدزيارتها وحجها وأمن منطقتها . ولقد ذكرت كتب التفسير والحديث والسيرة روايات عديدة بشأن مقام ابراهيم (ص) جاء فيها انه حجر فيه موقع قدمين كان العرب يعتقدون أنهما قدما ابراهيم (ص) ، أثرا في الحجر حينما كان يقف عليه ويرفع قواعد الكعبة على ما ذكرته آيات البقرة ، وأن عبارة « آيات بيئات » تعني مافي هذا الحجر من علامات ظاهرة هي موقع القدمين . وهذا متسق مع روح العبارة القرآنية من حيث الاجمال . ولعل في آيات البقرة المذكورة بمجموعها روحاً واسلوباً بل ومضموناً قرينة تدعم تقرير تداول العرب لذلك حينما يعمن النظر فيها ، حيث جاء مافيها باسلوب يلهم أن ماتقرره ليس غريباً على استماع السامعين الاولين وهم العرب وبنوع خاص أهل بيته النبي (ص) .

وفي هذه الآيات ، ثم في آيات سورة ابراهيم ٣٥ - ٣٧ إشارة الى ان أمن منطقة البيت الحرام انما كان بدعوة من ابراهيم (ص) ؛ واستلهاماً من روحها ومضمونها ومن اعتقاد العرب وتداولهم أن ابراهيم واسماعيل (ص) هما اللذان بنيا الكعبة وأن الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم (ص) ما يزال موجوداً يحتفظ بأثر قدميه يسوغ القول أن العرب قبل البعثة كانوا كذلك يعتقدون ويتداولون أن حرمة البيت الحرام وأمنه هما بدعوة ابراهيم (ص) ايضاً .

- ٤ -

هذا من جهة تقاليد الحج والكعبة وأمنها وأولياتها بوجه عام .
ومن جهة أخرى فان في الآيات ما يلهم ما كان لاهل مكة خاصة من ميزات ومركز وما كانوا يشعرون به عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج . فقد كانوا يرون لانتفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأوليائه كما تدل على ذلك آية الانفال (٢٤)

كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامتها وقديسيتها وجعلها مثابة للناس وأمناً ، لا يسفك فيها دم ولا يثار فيها نزاع وقتال ، فكانوا يتضامنون في القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وكرام وقرى باعتبار أنهم ضيوف بيت الله الذي في بلدهم والذي هم سدنته الاقربون ، وكان منهم من اختص بسقاية الحاج ومنهم من اختص بعمارته كما تدل ذلك آيات التوبة ١٧ - ١٩ ومنهم من اختص برعاية الحاج أي قراه كما ذكرت ذلك الروايات المعتبرة . ومن هنا جاءت عليهم الحملة محكمة لأنهم خالفوا العرف العام بحرية قدوم الناس الى مكة والقيام بزيارة الكعبة ومناسك الحاج ، فصدوا المسلمين عن المسجد الحرام على ما ذكرته آيات الانفال ٣٤ والحج و ٢٥ والفتح ٢٥ ، هذا بالإضافة الى ما كان ييسر لهم موسم الحج وأسواقه من منافع اقتصادية عظيمة كانت عاملاً من عوامل ثرائهم وحافزاً من حوافز نشاطهم التجاري على ما ذكرناه في احد فصول الباب الاول .



كذلك فإن في الآيات ما يمكن ان يساعد على رسم صور من طقوس الحج ومناسكه قبل البعثة النبوية ايضاً .

(١) فأيات البقرة ١٩٧ والحج ٢٨ تذكر ان للحج أشهراً معلومة او اياماً معلومة ، وفي آية البقرة ١٨٩ ذكر أن الأهلة هي مواعيت للحج اي ان أشهر الحج تعين بالأهلة . ولا يوجد في القرآن صراحة باسماء هذه الأشهر غير أن الروايات المتواترة ذكرت أنها ثلاثة أشهر هلالية من الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والحرم ولقد قال بعض المفسرين استناداً الى بعض الروايات أن أشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة . فاذا كان ما استندوا اليه صحيحاً فيكون التعديل إسلامياً في ما نعتقد وبدون ملاحظة الانطباق على الأشهر الحرم . ومهما يكن من امر فالذي نعتقد أنه أشهر الحج قبل الاسلام هي الأشهر الحرم المتعاقبة الثلاثة التي ذكرناها ، فالعرب لا يمكنهم أن يشدوا رحلهم حاجين الى مكة وهم آمنون مطمئنون وقد تكون منازلهم عنها بعيدة إلا في ظل هدنة الأشهر

الحرم التي أولها ذو القعدة وليس منها شوال .

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج مع ان موسمه واسواقه لا تستغرق إلا شهراً
وأياً ما واضحة ، فالمسافات الشاسعة التي يضطر الحاج الى قطعها من الانحاء القاصية
تحتاج الى مدة كافية للإياب والذهاب . ولعل في هذا دليلاً من ناحية ما على اشتراك
العرب من مختلف انحاء الجزيرة واطرافها بالحج وشهودهم موسمه وأسواقه وعدم
اقتصار ذلك على عرب الحجاز .

وآية البقرة ١٩٧ تنهى عن الرفث والفسوق والجِدال في الحج حينما يفرض
المراء على نفسه القيام بواجب الحج ويلفت النظر الى جملة « فمن فرض فيهن الحج »
أي في اشهر الحج المعلومات . ولا ندرى اذا كان يصح ان يستلهم منها أن المراء الذي
ينتوي الحج يجب عليه ان يمتنع عن كل ما لا يتلاءم مع طاعة الله والتفرغ لها ،
والمشادة والمهاترة مع الناس منذ دخول أشهر الحج ، او ان هذا الواجب يترتب
عليه حينما ينوي الحج ويخرج اليه أو يدخل منطقة الحرم ولو كان قد فعل ذلك
بعد انقضاء شهر أو أكثر من اشهر الحج ، ونحن نميل الى شمول النهي اشهر الحج
او على الأقل منذ اعتزام المراء الرحلة الى الحج كأنما دخل في ظرف عبادة لا يصح
له ان يتجاوز نطاقه . وهذا ما جعل المسلمين في عهد النبي (ص) على ما يبدو يخرجون
من الاشتغال في التجارة والتكسب في موسم الحج واسواقه حتى اباحت ذلك الآية
التالية لهذه الآية على ما شرحناه في بحث سابق . ولاندرى هل هذا ما كان يأخذه
الورعون على انفسهم قبل البعثة أو هو اسلامي ؟ ونحن نميل الى أن شيئاً من هذا
كان قبل البعثة استتباعاً لما كان العرب قد حرموه على انفسهم من نزاع وقتال وسفك
دم ، حتى دم الصيد في الاشهر الحرم التي هي اشهر الحج نفسها وفي منطقة الحرم
على ما سوف نذكره بعد ، ثم استتباعاً لما كان قرن بعنهم العمرة بالحج بحيث يبقى
في حالة الحرم الى ان يقضي جميع مناسكه ، بل لقد كان هذا هو الاصل ، وجعل
المسلمون بالخيار بين القرن وبين الاستمتاع بحالة الحل بين العمرة والحج مقابل
كفارة قربان أو صيام في حالة العجز عن القربان على سوف ما نذكره أيضاً . وننبه
على أن بعض الورعين من المسلمين يخرجون من بيوتهم محرمين ولا يحلون الا بعد
انتهاء جميع مناسك الحج .

هذا ، وقد ابتدع العرب قبل البعثة بدعة النبي ، وهي انشاء أي تأخير الأشهر الحرم أو تحليل بعضها وتحريم آخر مكانها . فكانت أشهر الحج بسبب النبي تدور أحياناً فيصبح ذو القعدة مكان ذي الحجة وذو الحجة مكان المحرم والمحرم مكان صفر أو يصبح شوال مكان ذي القعدة وذو القعدة مكان ذي الحجة وذو الحجة مكان المحرم وفي الحالة الأولى يحل ذو القعدة الحقيقي وهو محرم ويحرم صفر وهو غير محرم ، وفي الثانية يحرم شوال وهو غير محرم ويحل المحرم وهو محرم — مع الاحتفاظ بعدد الأشهر بقصد مسايرة مواسم السنة أحياناً ، واستجابة للداعي العصبية والثارات أحياناً أخرى . وإلى هذه البدعة أشارت آية التوبة (٣٦) وسفيتها واعتبرتها نقضا لحرمة الأشهر الحرم الأصلية :

« إنما النبي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين . . . »

وسنعود إلى شرح آخر في هذا الصدد في بحث الأشهر الحرم .

- ٦ -

(٢) اعظم أيام الحج هو يوم الوقوف في عرفات ، وهو اليوم التاسع من ذي الحجة . حيث يجتمع في هذا اليوم كل من أتى إلى الحج ويكونون جميعاً في صعيد واحد هو صعيد عرفات ، ولا يكون الحاج حاجاً إلا إذا شهد هذا اليوم في عرفات (١) وقد سماه القرآن على ما رجحه كثير من المفسرين بيوم الحج الأكبر في آية التوبة (٣) التي نقلناها في جملة ما نقلنا من الآيات . ونرجح أن لم نقل بحزم أن هذه التسمية كانت متعارفة من قبل ، استلزاماً من أسلوب الآية التقريري ، ولأن القرآن إنما خاطب الناس بمفهوماتهم ، وخاصة لأن في الآية أمراً باعلان براءة الله ورسوله من المشركين على الناس جميعاً في يوم الحج الأكبر الذي لا يعقل إلا أن يكون معلوماً عندهم من قبل .

(١) في أسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٨ حديث نبوي « الحج عرفة »

وعرفات هذه منبسط فسيح جداً من الارض يتسع للآلاف المؤلفة من الناس ومحاط بالجبال، وفي بعض اطرافه نخور وهضاب، وقد ذكرت في آية البقرة ١٩٨ . ويؤخذ من روايات الرواة واقوال المفسرين في صدد الآية المذكورة والتي بعدها انه كان ايوم عرفات رئيس من بيت معين من بيوتات العرب لا يفيض الناس الا بعد افاضته . ولعل الزعماء واصحاب الشأن في العرب كانوا يتخذون هذا اليوم المشهود وسيلة لاعلان بعض الامور وابلاغها للناس . وقد كان الناس بعد ان يفرغوا من حجهم يأتون الى صاحب الامر في النبي * ليسمعوا منه ما يريد ان يعلن الى الناس من تأخير أو تقديم في الاشهر الحرم (١) . وقد ارسل النبي (ص) في السنة التالية لفتح مكة ابابكر (رض) اميراً على الحج فأقام للناس حجهم . وقد ذكرت الرواية التي ذكرت هذا (٢) خبراً مهماً في بابه وهو ان الناس كانوا في تلك السنة على منازلهم على الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . وقد اتخذ النبي (ص) فرصة هذا اليوم المشهود وسيلة الى الاعلان للناس براءة الله ورسوله من المشركين على ما ذكرنا قبل فأعلن هذا للناس من قبل ابي بكر (رض) في رواية وعلي بن ابي طالب (رض) الذي ارسله النبي (ص) خصيصاً في رواية (٣) اخرى . وقد ذكرت بعض الروايات ان الاعلان كان صبيحة عرفات في منى حيث كان يوم النحر أو عيد الاضحى . وعلى كل حال في هذه الروايات ما يستأنس به على يوم الحج الاكبر وما كان في فرصة اجتماع الناس آفاً مؤلفة فيه من كل جهة وقبيل من قضاء امور هامة واطلاؤها ، وعلى ان ماجرى في الحج الاسلامي الرسمي الاول بعد فتح مكة انما كان استمراراً لما كان يجري عليه العرب قبل البعثة .



(٣) ولقد جاء في آية البقرة ١٩٨ — ١٩٩ تعبير « فاذا افضتم من عرفات »

(١) ابن هشام ج ١ ص ٤٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٨ و ٣٦١

(٣) ج ٣ ص ٣٦٠

و « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » ومعنى الأفاضة اللغوي الاندفاع بشدة .
 ومعناها الاصطلاحى الرجوع من عرفات بعد انتهاء امد الوقوف فيها . ومن نحوى
 الآيتين يستدل على انه كان هناك افاضتان واحدة من عرفات ، واخرى من المشعر
 الحرام ، وهاتان الافاضتان قد انتقلتا الى الاسلام ، ولا تزالان . فحينما يعود الحجاج
 من عرفات يأتون الى مكان يعرف اليوم بالمزدلفة في المكان الذى سماه القرآن في
 آية البقرة ١٧٨ بالمشعر الحرام ، فيتوقفون هنا الى الفجر ثم يفيضون منه الى منى .
 وفي كتب التفسير والسيرة^(١) يوجد بعض الروايات حول هاتين الافاضتين
 اللتين كانتا من تقليد الحج قبل البعثة ايضاً حسب ما جاء فيها من جهة واستلهاماً
 من الآية (١٩٩) التي تأمر بالافاضة من حيث أفاض الناس والتي تلهم أن لما كان
 ان بعض الناس كانوا لا يفيضون من حيث أفاض الناس ويسلكون طريقاً خاصة
 بهم من جهة اخرى .

ويستفاد من ذلك انه كان رجال من الطبقة الرفيعة من قريش يرون لانفسهم
 امتيازاً على الناس بسبب شرف بيوتاتهم وسداتهم للكعبة ، وكانوا يرون ان هذا
 الامتياز يحولهم ان لا يسلكوا طريق الحجاج العامة في الرجوع من عرفات أو
 المشعر الحرام . وفي بعض الروايات انهم كانوا يكتفون بالوقوف في المزدلفة — عند
 المشعر الحرام — ولا يشاركون الناس في الوقوف في عرفات ، ويسلكون في
 الرجوع من هنا طريقاً خاصة بهم . وقد عرفت هذه الطبقة باسم « الحماس » أو
 « الاحماس » وكان هؤلاء هم الذين يسنون للناس السنن في مناسكهم وتقاليدهم .
 ويظهر أن البيئة الاجتماعية كانت تتسع لهذا التمايز والتفاوت ؛ على اننا نبدى شكنا
 في رواية عدم مشاركة الاحماس الناس في الوقوف في عرفات ، لانه كان ركناً
 أساسياً في تقاليد الحج ، وآية البقرة (١٩٨) تذكر الافاضة من عرفات كأنما هي
 شيء طبيعي وعام لا استثناء فيه والآية (١٩٩) انما تأمر بالافاضة من حيث أفاض
 الناس من المشعر الحرام فقط .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٥ والخازن والطبرسي لأبي البقرة .

كذلك يستفاد من تلك الكتب (١) انه كان هناك بعض بطون أو بيوتات معروفة لرؤسائها الحلق في التقدم في الافاضة بحيث لا يفيض أحد الا اذا أفاض رئيس هذا البطن أو البيت ، فيقف الناس محجوزين ينتظرون افاضته ليفيضوا من ورائه ، وكانت افاضة الرئيس تسمى « إجازة » وكان هناك إجازتان احدهما من عرفات الى المشعر الحرام عند الافاضة الاولى ، والثانية من المشعر الحرام الى منى عند الافاضة الثانية .

أما المشعر الحرام فهو العلامة الارضية التي كانت تفصل المزدلفة عن منطقتي عرفات ومنى . ولعل جعل هذا المكان حداً يفصل بين المنطقتين وتسميته بهذا الاسم ، وتوقف الناس عنده كان بقصد اشعار الناس أنهم قد انتهوا من الواجب الاساسي في الحج ، واصبحوا حجاجاً وان لهم الحق في التعميد بعده ؛ وفعلاً فان الناس بمجرد افاضتهم من المشعر الحرام الى منى يصبحون معيدين عيد الاضحى حيث يقربون القرابين ويستريحون بعض الايام ، أو لعله سمي كذلك لأنه حد منطقة عرفات التي لا يكون الحاج حاجاً الا في الوقوف فيها . . .



(٤) ومن التقاليد التي انتقلت على حلقها الى الاسلام تقليد رمي الجمرات في منى . وهذا التقليد لم يذكر في القرآن بصراحة ، وانما وردت في سورة البقرة آية هي الآية (٢٠٣) ذكر المفسرون (٢) هذا التقليد وروايعه بعض الروايات في سياق تفسيرها .

والحجاج يقضون منذ عهد النبي (ص) أيام العيد في منى بعد افاضتهم من عرفات والمشعر الحرام ، يكبرون الله ويذكرونه عقب الصلوات ويرمون الجمرات ، وهذه الآية تشير الى هذه الايام التي يقضيها الحجاج في منى بالتكبير ورمي الجمرات . والآية تلهم ان الناس كانوا على رأيين منهم من كان يرى البر في التعجيل ؛ ومنهم من كان يراه في التمهيل ، وان المسامين كانوا بعد الاسلام كذلك على رأيين

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٥

(٢) الخازن ج ١ ص ١٣١ — ١٣٥ وغيره

استتباعاً لما كانوا عليه ، فجعلتهم الآية في الخيار ، فلا إثم على من تهجل ولا إثم على من تهمل اذا كان رائد الفريقين نية البر وتقوى الله . . .

وقد ذكر بن هشام (١) ان بمض حجج العرب قبل البشة كانوا يتذمرون من تأخر الاجازة احياناً عن المزدلفة الى منى فيأتون الى زعيمها يلحون عليه بالتعجيل حتى يفيضوا الى منى ويرموا جمراتهم ويتهبوا من مناسكهم ، وروح الآية وهذه الرواية تؤيدان رجوع هذا التقايد الى ما قبل البشة كما ترى .

والجمرات هي المحلات التي ترمى بالحصى . وهي ثلاثة الاولى والوسطى وجمرة العقبة . والحجاج يرمونها بالحصى يوماً على ايام ثلاثة ، فيرمون جمره العقبة بسبع حصوات في اليوم الاول ، ثم يرمون الجمرات الثلاث في اليوم الثاني واليوم الثالث كل واحدة بسبع حصوات في كل يوم ثم ينصرفون من منى الى مكة ، ومن الناس من يكتفي برمي يومين بدلاً من ثلاثة ايام . (٢)

واصل هذا التقايد على ما يستفاد من الروايات والاقوال ان الشيطان ظهر لابراهيم (ص) في هذه المحلات الثلاثة ليشوش عليه مناسك الحج أو ليصرفه عن تنفيذ الرؤيا التي رآها بذبح ابنه . وكان كل ما ظهر له في محل منها رجحه فساروا على سنته ؛ وقد اشار بعض المفسرين الى هذه الاولية في سياق تفسير آيات رؤيا ابراهيم (ص) في سورة الصافات ، وهي :

« فبشرناه بغلامٍ حلیم . فلما بلغ معه السعی قال یابني انی اری فی المنام انی اذبحک فانظر ماذا ترى قال یأبت افعل ما تؤمر ستجدنی ان شاء الله من الصابرين . فلما أسأما وتله للجبین ونادیناه أن یا ابراهیم . قد صدقت الرؤیا إنا كذلك نجزي المحسنین . إن هذا لھو البلاء المبین . وفدیناه بذبح عظیم . . . الصافات ١٠١ — ١٠٧

(٥) وقد كان للعرب في منى تقايد آخر . وهو عقد مجالس المفاخرة بعد ان يكونوا انتهوا من مناسك الحج . وقد ذكر المفسرون هذا التقايد في سياق تفسير آية البقرة (٢٠٠) وقالوا ان الحجج كانوا بعد قضاء مناسكهم يعقدون المجالس في منى

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣

(٢) في اسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٨ حديث نبوي في هذا الصدد .

ليتناشدوا الاشعار ، ويعددوا مفاخر الآباء والقبائل . والآية يمكن ان تلبس هذا الذي تناقلته الروايات لاسيما وايام منى هي ايام عيدوا كل وشرب وراحة؛ فأمرت الآية بذكر الله والذبحات بنعمه بدل الامن المفاخرات الجماعية التي تزيد في قوة العصبية الضيقة.



(٦) ولقد كان الطواف حول الكعبة من أهم تقاليد الحج . وهو ركن من اركانه في الاسلام . وقد اشير اليه في آيتي الحج (٢٦ و ٢٩) ، ونص الآية الاولى كأنما يخبر بشيء موجود متعارف عليه ، مما يساعد على اتخاذها قرينة قرآنية على ان القول ان هذا التقليد كان جارياً قبل البعثة فضلاً عن الروايات المتواترة اليقينة في ذلك . والطواف هو مراسم زيارة الكعبة او تحيتها . وزيارة الكعبة نوعان : زيارة عمرة وزيارة، وحج، والاولى يمكن ان تكون في غير موسم الحج او بغير نية الحج . فالقادم إلى مكة يجب عليه لاول قدومه ان يزور الكعبة مرة أي ان يطوف حولها سواء كان القدوم في موسم الحج او لا ، وبنية الحج أو لا . فاذا كان القدوم في غير موسم الحج او بغير نية الحج سميت عمرة ، هذا بالإضافة الى ان للقادم الى مكة او المقيم فيها ان يذهب الى المسجد الحرام وان يطوف حول الكعبة مراراً . وقد ذكرت الزيارتان الرسميتان المذكورتان في آيتي البقرة ١٥٨ و ١٩٦ . وهاتان الآيتان نزائماً على ما يرجح قبل الفتح بمدة قصيرة ، ويساعد على هذا التوقيت ما جاء في الآية ١٩٦ من ذكر احتمال الأحمسار أو المنع القهري عن اتمام واجب العمرة والحج . وهذا مع اسلوب الآيتين وروحها يسوغ القول اولاً أن هاتين الزيارتين كانتا رسميتين ايضاً قبل البعثة ؛ وثانياً ان من العرب من كان يقوم بهما كلاً على حدة ؛ ومنهم من كان يجمع بينهما معاً ؛ والعمل الجاري الآن هو إيمان الحاج بلبس ثياب الاحرام عند حدود مكة بنية العمرة أي زيارة الكعبة فقط ، واما ان يلبسها بنية جمع العمرة والحج معاً ، فالاول بعد زيارته للكعبة يتحلى من احرامه ويتمتع بما تبيحه له حالة الحل الى ان يأتي وقت الوقوف في عرفة فيحرم ثانية - يلبس ثياب الاحرام - ويطوف بالكعبة ثم يذهب الى عرفات . أما الثاني فانه يزور الكعبة ثم يبقى محرماً الى ان تم وقفة عرفات ، وجملة وفن تتمتع بالعمرة الى الحج ، قد عننت الحالة

الاولى، ولقد اوجبت الآية ١٩٦ على الذين يتسعمون بين العمرة والحج من غير اهل منطقة الحرم تقديم قربان ما أو صيام عشرة ايام ثلاثة في الحج وسبعة في الموطن ككفارة عن هذا التمتع . ويلزم هذا ان الاصل أو الافضل هو بقاء القادم الى الحج في حالة الحرم (١) الى ان يتم مناسكها جميعها ، وعدم استثناءه بحالة الحل بين العمرة والحج . وبدوا ان استثناء اهل منطقة الحرم من الكفارة ناشئ عن ظروف اقامتهم ، فهم لم يكونوا كالقادمين الموسمين الذين قد شدوا الرحال بقصد اداء هذه المناسك الدينية ، وظروف اقامتهم الدائمة تستلزم ان لا يتفرغوا مشاهم المناسك وان يكتفي منهم بما هو جوهرى الوجوب . أما الطواف النفل فمن الممكن للقادمين المستمتعين بحالة الحل واهل منطقة الحرم ان يقوموا بالطواف بدون ثياب الاحرام . ونحمن ان هذا كله أو جله كان هو الجاري من قبل ايضاً .

والطواف في الاسلام هو سبعة أشواط على مدار بناء الكعبة . ويبدء كل شرط من الركن الذي فيه الحجر الاسود . والطائف يستقبل هذا الركن ويستلم الحجر أو يقبله أو يشير اليه . وليس للحجر الاسود واستلامه أو تقبيله ولا لعدد الاشواط السبعة ومبدئها اشارة ما في القرآن ، ولكن ذلك ثابت بالسنة النبوية المتواترة التي لم ينقطع العمل بها . ونحمن ان لم نقل نجزم ان هذه المراسم قد انتقلت الى الاسلام على حالها التي كانت عليه قبله .

والحجر الاسود كان مقدساً قبل البعثة ، فابقيت له في الاسلام حرمة وعادة استلامه أو تقبيله ، والبدء بأشواط الطواف من الركن الذي هو فيه . وهو حجر صواني اسود لامع ، وفي تقاليد العرب الرواية انه نزل من السماء ، ولعله قطعة من نيزك سماوي نزل في وقت ما على مرأى من بعض العرب فتبركوا به أو عدوه هدية سماوية ووضعوه في احد اركان الكعبة ثم جعلوا بدء اشواط الطواف منه .

هذا ؛ ولقد جاء في بعض الآيات ذكر للحلق والتقشير اي تقشير الشعر كإلامة لتحليل من الاحرام عقب اداء المناسك التي من جعلتها ذبح الضحية المهدية لله . وذلك في آيات البقرة ١٩٦ والفتح ٢٧ ، والآية الاولى تحظر حلق الرأس قبل ذبح الضحية

(١) في ما يأتي شرح لهذه الحالة .

في المكان الذي يحل فيه ذبحها اي عند الكعبة أو منطقتها كما تدل على ذلك آية الحج ٣٣ وتوجب على المضطر الى حلق رأسه بسبب المرض او اذى القمل ان يقدم كذارة تعبدية ما ، كصدقة او صوم او قربان . وتقريب القربان الرسمي جارٍ الآن بعد الانتهاء من مناسك الحج والوقوف في عرفات ، وليس من الجاري ان يقرب الحاج قرباناً رسمياً عقب طوافه الرسمي الاول بالكعبة ، بل انه يتحلى من احرامه بقص شعره أو حلقه ولبس الثياب العادية اذا لم يكن قارناً بين العمرة والحج . ولعل في هذا قرينة اخرى على ان الاصل هو بقاء الحاج القادم في حالة الاحرام الى ما بعد الوقوف في عرفات . وعلى كل حال فاننا نضمن ان لم نقل نجزم ان الحاق او التقصير كانا قبل البعثة ايضاً من علامات التحلل من الاحرام وان الحجاج لم يكونوا يفعلون ذلك الا بعد تقرب قرايبتهم .



(٧) وقد قلنا ان المسلم يؤدي الزيارتين المذكورتين للكعبة وهو في ثياب الاحرام اي في ثياب غير مخيطة . ويظهر ان لهذا اسبلاً ما قبل البعثة ايضاً . فقد ذكرت كتب السيرة والتفسير (١) في صدد احدى آيات سورة الاعراف :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... ٣١ » ان بعض الحجاج قبل الاسلام كانوا يطوفون حول الكعبة عراة وان الآية بسبيل التنديد بذلك وتقرير كون الثياب زينة وحشمة ، ووجوب اخذ الناس زينتهم والظهور بمظهر الحشمة عند كل عبادة ومسجد (٢) . وقد ذكرت فيها ذكرته ان العرب كانوا يتكبرون ان يطوفوا بالكعبة وعليهم ثيابهم الاعتيادية حذر ان يكونوا قد اتوا بهض الآثام والفواحش وهي عليهم ، فسن لهم الاحماس خلفها والتستر بماآزر كان الاحماس

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٩٢ و ١٩٣ والخازن ج ٢ ص ٨٣ مثلاً .

(٢) كل عبادة فيها سجود وكل مكان عبادة يسمى مسجداً . وقد كان النبي

(ص) يصلي في ارض ما فيسمونها مسجداً رسول الله . وقد سمي القرآء معبد اليهود في القدس مسجداً وكذلك سمي فناء الكعبة والكعبة مسجداً قبل فتح القدس وقبل فتح مكة .

يعدونها خصيصاً للحجاج ويسمونها « المآزر الاحمسية »؛ (١) وحينما ينتهي الطائف من طوافه او الحاج من مناسكه يعود الى لبس الثوب الذي خلعه . اما الذي يطوف بثوبه فانه يحرم عليه لبسه بعد الطواف ويجب عليه طرحه ، ويسهرون ذلك « اقي » ، فكان الحجاج الذين لا يجدون مآزر احمسية او لا يقدرون عليها ؛ ويضنون بثيابهم ان يلقوها ويفقدوها يخضعونها قبل الطواف ، ويطوفون عراة رجالا كانوا او نساء . وقد ظلت عادة الطواف بالعمري الى ما بعد فتح مكة ، فلما نزلت آيات براءة الله ورسوله من المشركين واطلاق تحريم المسجد الحرام عليهم لانهم نجس وهي آيات التوبة ٣ و ٢٨ وابلغ ذلك للناس يوم الحج الأكبر ابلغوا ايضاً ابطال هذه العادة على ما ذكره الرواة والمفسرون في صدد تفسير الآيتين .

ومما يلحق بهذا ما نهت عنه آية البقرة (١٨٩) من دخول البيوت من ظهورها واطلاق المسلمين بها انه ليس في ذلك بر ولا قربى لله . وقد ذكر المفسرون (٢) في صدد هذه الآية ان العرب - وفي الروايات ما خصص اهل المدينة منهم - كانوا اذا احرموا (٣) تكبروها ان يظلمهم سقف ماداموا محرمين لئلا يفسد احرامهم الذي يفسد بستر الرأس . وكان ذلك سنة من سنن الاحماس . فكانوا اذا ارادوا الدخول إلى بيوتهم لحاجة ما اتوها من ظهورها وسطوحها تفاديا من الدخول من الابواب التي يعلوها سقف او غطاء ما . وقد ابطلت الآية هذه البادة في ما ابطلته لان فيها حرجاً وكلفة . ونلفت النظر إلى ان من شروط الاحرام في الاسلام عدم ستر الرأس ، فلعل في هذا تعديلاً لذلك التقليد .



(٨) ومن التقاليد التي كانت قبل البعثة الطواف بين الصفا والمروة . وقد اشارت آية البقرة (١٥٨) الى هذا التقليد بأسلوب يدل بصراحة على انه من التقاليد القديمة .

(١) لعله كان مطوفون للحجاج مثل اليوم وان هؤلاء هم الذين كانوا يعدون المآزر

(٢) الخازن ج ١ ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٣) الاحرام في الاسلام لبس غير الخيط غير انه جاء في الخازن ج ١ ص

٤٩٣ ما يفهم منه انه كان يطاق على دخول منطقة الحرم او على دخول الشهر الحرام .

والصفا والمروة (١) هضبتان صخر او يثان قريبتان من الكعبة ؛ وبميدتان عن بعضهما نحو اربعمائة متر وكان المشركون قد وضعوا عندهما على ماجاء في الروايات بعض احنامهم ، وكانوا يقرمون عندهما ببعض الطقوس ، ويقربون لها القرابين ، ومن جملة هذه الطقوس الطواف بها . وقد ذكر المفسرون والرواة في سبب نزول هذه الآية ان المسلمين تخرجوا من الطواف بها كما كانوا يفعلون قبل الاسلام فنزلت الآية ترفع الحرج عنهم ، بل وتحضيمهم على الاستمرار بالتطوف بها ، وتقرر انها من شعائر الله . والطواف الاسلامي بها هو ما يسمى بالسعي بين المظنبتين سبعة اشواط ذهاباً واياباً يبدئه الحاج من احداهما مكبراً ثم يمشي ويمرول بسرعة في منتصف الطريق بمض الخطوات عند علامة معينة ويظل يتلو الادعية ويذكر الله في الاشواط جميعها ، ونضمن ان لم نقل نجزم ان التطوف بها قبل البعثة كان السعي بينهما اشواطاً سبعة كما هو جار بعد الاسلام .

— ١٢ —

(٩) وفي آيات البقرة ١٩٦ والمائدة ٢ و ٩٧ والحج ٢٨ و ٣٦ والفتح ٢٥ اشارات الى الهدى والقائد . ومضامين الآيات واساليبها تلهم بقوة ومراحة انها كانت من تقاليد قبل البعثة التي اقرها الاسلام . والهدى هو الحيوان الذي يسوقه الحاج معه ليذبحه بعد اداء مناسكه قربان شكر لله . وقد كان من عادة الحجاج العرب تقليد الهدى اي وضع قلادة من سيور الجلد او الياف الشجر او فتيل الخيطان في عنقه اعلاناً بأنه هدى فيصبح محرماً محترماً . وهذا هو المقصد من تعبير « القائد » ، ولعل النهي عن اطلاقها هو النهي عن اخذ القائد من اعناق الهدى لما في ذلك من عدوان على حرمة او تعريض له لاعدوان والشبه ، والهدى يطلق على الحيوان الذي يختص للقربان ، فاذا كان الحيوان من البقر والابل سمي بديناً ؛ وقد جاءت هذه التسمية في آية الحج (٣٦) . وكان من السائغ ان يشترك اكثر من حاج واحد في البدنة فتكون قرباناً عن اكثر من حاج واحد . ولعل تعبير « الهدى » مشتق من الاهداء على اعتبار ان القربان هدية من الحاج الى الله او الى الكعبة .

(١) في اللغة الصفا للصخر القاسي والمروة للصخر اللين .

والمسلمون يسمون قرابينهم اليوم باسم الاضاحى والاضحية ، وقد سمي عيد الحج باسم عيد الاضحى من اجل ذلك لان الاضاحى تذبح بعد الافاضة من المشعر الحرام ويكون ذلك اليوم العاشر من ذي الحجة وهو اليوم الارل من العيد .

ومن صيغ الآيات يمكن ان يستدل على ما كان لتقاييد الهدى والقرابين من اهمية عظيمة . وقد نوه القرآن بها وهو يقرها في الاسلام و اشار الى ما فيها من إقامة أود الناس لاسيما الفقراء والمساكين والبائسين . واذا لاحظنا ان الذين يهدون الهدى هم الاغنياء والقادرون ، وان كثيراً من الناس او بالاءحرى اكثرهم فقراء ، يهدون الى الحج ليؤدوا مناسكهم متحامين في سبيل ذلك الشدائد والمتاعب والحرمان ادر كنا اهمية هذا التقايد وفوائده في ظروف الحج وبيئته قبل البعثة وبعدها معاً . وقد كان العرب يحيطون هذا التقايد بالعناية والحرمة بل بالتقديس والرهبة . وقد بلغ منهم ذلك الى درجة ان بعض الحجاج كان يترك هديه سائماً وخاصة حينما يكون سقلاً فيتحنأه الناس ولا يتعرض له احد بسوء .

وقد كان من عادتهم على ما ذكره الرواة (١) « إشعار « البدن » أي جرحها جرحاً خفيفاً ليميل دمها على ظهرها اشارة الى كونها هدياً . ويسمون البدنة الجروحة بهذا القصد « شعيرة » . ومن المفسرين من فسر كلمة شعائر الله في آيات الحج ٣٦ و٣٧ على انها الهدى الجروح على الوجه الذي ذكرناه . والذي نخمنه ان هذه العادة كانت تقوم مقام القلائد ، فالجرح والدم السائل علامتان اثبت من القلائد التي يمكن ان تخلع من أعناق الهدى كما هو المتبادر . ولعل من العرب من كان يقلد هديه ، ومنهم من كان يشتره .

وقد كان من عادتهم ان يلبطنخوا جذران الكعبة بدماء هديه ظناً منه ان في هذا تقرباً الى رب البيت . والى ذلك اشارت احدي آيات الحج (٣٧) على ما ذكره بعض المفسرين والرواة ، حيث نهت على ان الله لا يناله شيء من لحوم الهدى ولا دمائه وإنما الذي يريد من الناس التقوى والاخلاص ، وبذلك أبطلت هذه العادة . وقد كانوا يتأثمون من أكل لحوم هديهم ، ويتركونها للفقراء والمساكين والسباع

(١) أسد الغابة ج ٣ ص ٢٢٨

والجوارح ، فأباح القرآن لآءه حباب الهدي ان يأكلوا منه إذا شاؤوا ، وان يطعموا
البائس والفقير والقانع والمتر أي المحتاجين سألوا او لم يسألوا (١) .

وكانوا يذبحون هديهم عند الأعرثان والأهصاب في فناء الكعبة ويذكرونها
اثناء الذبح . وفي آية الحج (٣٠) أمر بوجوب اجتناب الرجس من الأوثان جاءت
في سياق ذكر الأنعام ، ويمكن ان تكون قرينة قرآنية فضلاً عن ثبوت ذلك
بالروايات المتواترة . وقد شددت آت كثيرة في النهي عن ذلك ، وأكدت وجوب
ذكر اسم الله على الأنعام حين ذبحها وإن ما لم يذكر اسم الله عليه فهو فسق لآءه
أهل^٢ (٢) لنير الله كما جاء في آيات نقلناها في بحث اطعمة العرب ، وكما ذكر هذا في
آيات الحج في سياق ذكر الأنعام التي تذبح في موسم الحج .

وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيها البشر جميعهم في بعض
ادوارهم واطوارهم ومختلف بيئاتهم . غير ان الروايات ذكرت ان العرب كانوا
يرجعون تقاليدهم في ذبح القرابين الى ابراهيم (ع) الذي امتحن بذبح ولده ففداه
الله بذبح عظيم على ما جاء في آيات الصافات التي نقلناها قبل في سياق تقاليد رمي
الجمرات ، وإن هذا كان في ما يتداولونه من الروايات في اليوم العاشر من ذي الحجة .
ونرجح ان العرب كانوا يعرفون خبر هذه الحنة ويتناولونها ، ويرجعون اليه او
يعلمون به ذبح الضحايا كما كانوا يرجعون أولية الحج الى ابراهيم (ص) ويعرفون
ويتناولون حلته بالكعبة ومقامه في فنائها .



(١٠) وكان من تقاليدهم تحريم الصيد في حالة « الحرام » ؛ ولقد احتوت آيات
المائدة ٢٠١ و٩٤ و٩٦ نهى للمسلمين عن إحلال الصيد وعم حرم ، وروح الآيات
تلهم ان هذا التقليد ليس إسلامياً ، وإن النهي يؤكد لتقاليد سابق للإسلام ، ويدعم
هذا ما تلهمه آيات القرآن من تأثم العرب مسلمهم ومشركيهم على السواء من القتال
في الأشهر الحرم حيث يصبح أن يقال إن هذا كان فرعاً عن تقاليد تحريم القتال في هذه

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٣١ = ٤٤٢ وج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٤٠

(٢) اي ذبح .

الأشهر التي هي أشهر الحج ، وهكذا يكون العرب قد وصلوا في تأثمهم من سفك الدم والقتال في هذه الأشهر الى ان يجملوا هذا شاملاً لسفك دم الصيد ايضاً. على ان اسلوب الآيات قد يلبسهم ان تقايد تحريم الصيد في حالة « الحُرْم » قد ضعف اثره وتهاون فيه فاقترضت حكمة التنزيل تثبيته من حيث الأساس تبعاً لما ثبتته من حرمة الأشهر الحرم وأشهر الحج ومنطقة الحرم وتحريم القتال وسفك الدماء فيها . ولا نستبعد ان يكون هذا التهاون قد بدا من المسلمين حيث ظنوا ان هذا التقايد لا ضرورة له لأنه لم يثبت في التنزيل القرآني الذي نزل مبكراً ، لاسيما وقد رأوا هذا التنزيل المبكر يبيح لهم قتال المشركين في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام مقابلته على ما بدا منهم من عدوان وأذى ضد المسلمين في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام كما جاء في آيات البقرة ١٩١ - ١٩٤ وخاصة آية البقرة هذه :

« يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استعظعوا ... ٢١٧

وآية المائدة ٩٦ تلهم انها تحتوي تشريعاً اسلامياً فيد تخفيف للتقايد القديم ، حيث تبيح للمسلمين صيد البحر وأكله مطلقاً وتبقى صيد البر محرماً عليهم ما داموا حراماً ؛ حيث ترجح استلهاماً من روح الآية اولاً ومن اطلاق النهي عن الصيد في آيتي المائدة ٢ و١ ثانياً إن ذلك التقليد كان شاملاً لصيد البحر والبر معاً . وحالة الحُرْم في الاسلام هي مدة لبس ثياب الاحرام ، بحيث النهي يستمتع بحالة الحل بين العمرة والحج يستمتع بكل ما هو محظور على المحرم ومن ذلك الصيد وقد لا ندوم هذه المدة إلا أياماً معدودات ، اي من حين دخوله منطقة الحرام الى ان يزور الزيارة الرسمية الاولى ، ثم من حين ذهابه الى عرفات الى ان يعود منها الى منى ؛ وعلى هذا فيمكن ان يقال ان كلمة « حُرْم » الواردة في آيات المائدة ٩٤ - ٩٦ قد صار لها في الاسلام معنى اصطلاحى . أما قبل الاسلام فليس في إمكاننا ان نقرر بحزم مدى هذه الكلمة فيه مع ترجيحنا انه على كل حال أوسع من مداها الاصطلاحى الاسلامى الجديد ونضمن ان الكلمة إما انها كانت تعني ظرف الأشهر الحرم وإما انها كانت

تعني حلول المرء في منطقة الحرم او كليهما معاً ونحن نرجح هذا؛ بحيث كان المرء يمد نفسه بحالة الحرم حينما تحل الأشهر الحرم واشهر الحج منها او حينما يحل في منطقة البيت الحرام ، فكان يحرم عليه في الحالتين سفك دم الصيد البري والبحري كما يحرم عليه القتال وسفك الدم فيه . وقد يدعم ترجيح كونها تعني الحالتين معاً تحريم صيد البحر وصيد البر معاً ؛ لأن صيد البحر لم يكن ممكناً الوقوع في الغالب إلا خارج منطقة الحرم ، كما يمكن ان يدعمه ما كان من تحريم القتال وسفك الدماء في منطقة الحرم بصورة معالقة أي في الأشهر الحرم وغيرها (١) .

- ١٤ -

(١١) ولقد اشرنا إشارة عابرة الى ما كان من اختصاص بعض بيوتات قریش بمهام عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وهي مما اشارت اليه آيات التوبة ١٧ - ٢٠؛ واسلوب الآيات يدل على ما كان اصحاب هذه المهام يرونه من شرفهم بها وحقهم بالزهو بسببها وبالتالي يدل على ما كان يراه العرب فيها من خطورة . وقد رأينا ان نعود الى الكلام عن ذلك في هذه السلسلة لأن هاتين المهمتين اولاً ، ومهمات اخرى متصلة بالكعبة والحج ثانياً مما يسمح ان يعد في ذات الوقت من تقاليد الحج المهمة . ولقد ذكر المفسرون والرواة (٢) ان هذين التقاليد مع تقاليد آخره هو الرفادة أي قرى الحجاج بحماسته قصي بن كلاب جد النبي (ص) الثالث من سنان لقریش ليقوموا بواجب حرم الله وحجاجه لأنهم اهل الأقربون .

والسقاية هي الاضطلاع بمهمة تحضير المياه للحجاج حينما يأتيون الى مكة ، وحينما يذهبون الى عرفات ثم يعودون منها الى منى . فالياه كانت شحيحة ومتسرة وكان لابد من تهيتها وتوفيرها للحجاج . وقد كان القائم بهذه المهمة يهيء بالاضافة الى المياه مياهاً فيها زبيب او تمر لتغيير طعمها الذي كان ملحاً بعض الشيء ، وكان هذا يقدم لأكبر الحجاج وعيونهم ؛ وكان آخر من تولى هذه المهمة في عهد النبي (ص) وقبل الفتح المكي العباس بن عبد المطلب (رض) عم النبي (ص) .

(١) في الخازن ج ١ ص ٤٩٣ ما يعضد هذا الترجيح .

(٢) اقرأ مثلاً ابن هشام ج ١ ص ١١٦ - ١١٨

وعلمارة المسجد هي خدمة الكعبة وسداتها وسراستها، ومن المعقول ان يدخل في هذا المعنى تسهيل الزيارة وإرشاد الزوار ومساعدتهم في اداء مناسكهم . ولا يبعد ان يكون للبيت الذي كان اليه هذا التقليد صفة دينية، وقد ذكرت الروايات تقليداً باسم « الحجابة » أى حق فتح باب الكعبة وغلقه وحفظ مفتاحه . ولعل الحجابة والعمارة كانتا تقليداً مزدوجاً في بيت واحد . فالآية ذكرت « العمارة » وليس في الروايات التي اطلعنا عليها تقليدان كل منهما مستقل عن الآخر احدهما عمارة والثاني حجابة . وكان آخر من تولى هذه المهمة في عهد النبي (ص) وقبل الفتح المبكي طلحة بن شيبه ؛ وقد أقر النبي (ص) هذا التقليد فيه وفي ذريته وما يزال الى الآن .

والرفادة هي تقديم الطعام للحجاج في أيام عرفات ومنى ؛ وقد كانت بيوتات مكة تتعاون على نفقات الطعام ، ويتولى امره رئيس احدى البيوتات ، واختصاص آية التوبة السقاية والعمارة بالذكر يمكن ان يلهم ان تقليد الرفادة دونها خطورة ومدى .

- ١٥ -

(١٢) ولقد أشرنا في بحث نشاط مكة التجاري الى الأسواق العامة التي كانت تقام في موسم الحج . وزيد ان زيد هنا على ما قلناه ان إقامة هذه الأسواق يصح ان تعد من تقاليد الحج لأنها كانت في أيام واما كن مستقرة مستمرة . واذا كانت هذه الأسواق من جهة مجالاً لنشاط اهل مكة التجاري فقد كانت من جهة اخرى تقليداً خطير الشأن جليل النفع بالنسبة لسائر العرب الذين كانت لهم في الحج وأشهره الحرم فرصة الغدو والرواح آمنين مطمئنين ، فيلتقون في هذه الأسواق يتبادلون السلع وقيمون أودهم ويتزودون بما هم في حاجة اليه من العروض ويشهدون فيها منافع عظيمة اخرى لهم . ولقد تواترت الروايات على ان العرب كانوا يفتدون على موسم الحج واسواقه من كل جهة من الشام ونجد والعراق واليمن وتمامة والبحرين على مختلف القبائل والبيئات واللاهجات والعقائد كما قلنا قبل واستلهمناه من جملة «من كل فج عميق» في إحدى آيات الحج ، وكانت لهم في اسواقه خاصة — لأن أيام

الحج لا يكون فيها متسع - فرص لإقامة مجالس المفاخرات وإنشاد الأشعار والمفاضة بين الشعراء ، ولعمد حلقات السمر ، ومجالس القضاء على المشاكل والقضايا المعقدة ، كما كانت فرصة لتسيير الإخبار و بث الأفكار والقاء الخطب ، وتعارف الزعماء والنهلاء والشعراء والخطباء .

ومن المتواتر في كتب السيرة ان النبي (ص) كان يفتتح فرصة هذه الأسواق فيسعى الى لقاء وفود العرب ونبأهم ويعرض عليهم رسالة ربه ويتلو عليهم القرآن ، وانه التقى فيها بوفود يثرب وتم بينه وبينهم الاتفاق الذي نتج عنه حادث الهجرة الاكبر الذي كان له اعظم الاثر في نجاح الدعوة الاسلامية وسطوع نورها الوهاج . وإنما نرجح ان الوافدين على هذه الأسواق لم يكونوا قاصرين على مشركي العرب ، بل كان يفد عليهم نصارى العرب ويهود يثرب ايضاً للتبشير والاتجار ولعل منهم من كان يشترك في بعض مناسك الحج ايضاً . وفي سورة البقرة آيات لعلها تلهم هذا جاءت في حصد تبرير تبديل تمت القبلة الى الكعبة وذكر فيها ان اهل الكتاب يمارون ان هذا التبديل حق ، وانهم ليعرفونه كما يعرفون ابناءهم :

... فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض وائن اتبعتم اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ... ١٤٣ - ١٤٥ » .

ورواية خطبة قس بن ساعدة او قس بن ساعدة الأيادي في أحد مواسم الحج من الروايات العربية المشهورة وهو نصراني على الأرجح .

وناهيك بما يمكن ان يكون لهذا كله من أثر اجتماعي وأدبي عظيم في العرب الذين أتوا من كل جهة ثم تفرقوا الى منازلهم وقد امتلأت جعباتهم بالأخبار وذاكراتهم بالأشعار والخطب والكلمات المختارة واكتنفت اذهانهم كذلك بمختلف الصور والمشاهد مما ساعد دون ريب على تقريب العرب من بعضهم واستقرار معنى

القومية المشتركة في اذهانهم ، وتوحيد اللغة وتصنيفيتها ، وبعث او تهيئة حركة نشيطة بدت تباشيرها وتطورها التقدمي قبل الاسلام فيما كان من تطور من الوثنية الى الشرك ثم الى اعتبار الشركاء شفعاء عند الله ومن استنكار العرب لما بين الكتابيين من خلاف ونزاع وتسيدهم بهم وتمنيهم او توقعهم بمشته نبي منهم فيهم وحلفهم الايمان بانهم اذا جاءهم نذير ليكونن اهدى من الكتابيين ، ومن ظهور طبقة الموحدين الذين اخذوا يشتمون مما عليه بنو قومهم ويهلوفون في الارض ينشدون ملة ابراهيم ويتعبدون عليها او على ما ظنوا انها هي ؛ ومن اقتباس العرب كثيراً مما عند الكتابيين وغيرهم من معارف دينية وغير دينية مما سوف نلم به في فصول أخرى .

الاشهر الحرم

- ١٦ -

يستدل من الآيات القرآنية وما ورد في صدها من روايات وقائمة وتفسيرية انه كان لهذه الاشهر اثر عظيم في حياة العرب الاجتماعية وخاصة في بيئة النبي (ص) قبل البعثة . فبينما تكون الحروب مستمرة والغارات قائمة ، والناس مندفعين وراء ثاراتهم واحقادهم وعصبياتهم يقف كل هذا حين حلولها تنظيمياً واحتراماً ، ويصبح الجميع في هدنة طبيعية شاملة ، ويتلاقى الاعداء واصحاب الثارات في اثنائها في منطقة بيت الله المحرم وخارجها فلا يكون بينهم شر ولا قتال ؛ بل لقد وصل تأتمهم من سفك الدم فيها انهم حرموا الصيد اثناءها ايضاً لما في الصيد من معنى التحرش وسفك الدم وما في ذلك من انتهاك حرمة هذه الاشهر على ما ذكرناه قبل . وفي القرآن عدة آيات في صدد هذه الاشهر نورد في ما يلي ما لم نورد سابقاً :

١ - الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا

عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ... البقرة ١٩٤

٢ - فاذا انسلك الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم

واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

سبيلهم ان الله غفور رحيم ... التوبة ٥

٣ - إن "عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ... التوبة ٣٦

٤ - وينبغي ان يسلك في هذه السلسلة آيات البقرة ٢١٧ والمائدة ٢ و ٩٤ - ٩٧ والتوبة ٣٧ التي نقلناها في البحث السابق لأنها كذلك متعلقة بالاشهر الحرم. وفي هذه الآيات شواهد صريحة على ان حرمة الاشهر الحرم كانت قائمة قبل البعثة بزمن طويل لا يعرف العرب المعاصرون اوله ، كما فيها تثبيت وإقرار لهذه الحرمة في الاسلام استمراراً لما كان عليه الأمر قبله ؛ وآية التوبة ٣٦ تشير اولاً الى هذا القدم والاقرار وثانياً تجعل الاشهر الحرم مستقرة التعيين ، وتمهد الآية ٣٧ التي جاءت بعدها في الحملة على بدعة النسيء التي كان من شأنها ان تغير في عين الاشهر وتجعل غير المحرم في اصله محرماً والمحرم في اصله حلالاً غير محرم تقديماً وتأخيراً على النحو الذي شرحناه سابقاً ، وينطوي في جملة الآية جعل الحرمة ثابتة مستقرة لاعتيان الاشهر ومنع التلاعب فيها وبالتالي ينطوي قصد التنوية بخطورة حرمتها كما هو المتبادر . وآية التوبة (٥) تأمر بتأخير قتال المشركين المحاربين والغادرين ليهودهم الى ما بعد انقضاء الاشهر الحرم كما ان آية المائدة ٢ تنهى عن إخلال حرمة الشهر الحرام وفي كل هذا تثبيت لحرمة الاشهر في الاسلام بالاضافة الى ما تلهمه روح الآيات من ان هذا التثبيت لإقرار لما كان الامر جارياً قبله . وفي آية المائدة ٩٧ إشارة الى ما في حرمة الشهر الحرام من فوائد عظيمة للناس لأن فيها قيام أودهم كما في الكعبة .

ولقد نبهنا في مناسبة سابقة على ما كان من استغلال مشركي قريش لحادثة سرية من سرايا النبي (ص) اشتهر بأنها قاتلت في اول أيام الشهر الحرام ، وما كان من ضجعتهم وتأثر المسلمين المخلصين بها حتى نزلت آية البقرة ٢١٧ في تبرير ذلك لان المشركين قد اعتدوا على المسلمين وآذوهم وفتنوهم وسدوهم عن المسجد الحرام في ظروف الاشهر الحرم ... وهذه الضجة واثرها شاهد قريب على ما كانت لحرمة

الاشهر الحرم في تنفس العرب من حيز عظيم وخطورة مقدسة بالغة .
ونحن في غنى عن الاسهاب في شرح خطورة هذا التقليد في بيئة ليس فيها
سلطان نافذ وازع ، والغارات والثارات بين أهلها متواصلة متبادلة ، والعصبية على
انواعها قوية شديدة ، والانفة والحمية متأصلتان ؛ ولهم في ذات الوقت حاجات
كثيرة : تجارة لا بد لها من مشتريين ومستهلكين ، وزراع لا بد لهم من المبادلة على
غلاتهم وثمارهم ، وأعراب لا بد لهم من استيفاء حاجاتهم السنوية من ماعون وثياب
وغير ذلك ومن بيع ما يزيد عندهم من أنعام ومواشي ، وشعر ووبر و صوف ، فإذا
تكون حالتهم لو لم تكن هذه الهدنة العامة ، ولو لم ييسر لهم بسببها إقامة تلك
الاسواق العامة وشهودها وكل هذا عبرت عنه آية المائدة (٩٧) ^١ بالايجاز القرآني
الباهر . وظاهر من روح الآيات ان العرب كانوا يسبغون على حرمة الاشهر الحرم
وهديتها صفة تقديسية ويصبغونها بصبغة دينية . ولنا نشك في أنهم كانوا يعتقدون
بان الاخلال بحرمتها وقداستها يجلب عليهم الشر والنحس والشؤم تبعاً لما كانوا
يستهدفونه في تديشهم على ما سوف نذكره في فصول أخرى ؛ وان هذا الاعتقاد
كان الوازع المانع دون الاخلال بهذه الحرمة والقداسة .

- ١٧ -

والاشهر الحرم ليست معينة في القرآن كما رايت . غير ان التواتر الذي لم
ينقطع قد عينها بصورة يقينية ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والاشهر
الثلاثة الأخيرة هي أشهر الحج ، على ما رجحناه في مناسبة سابقة وعلى الأقل
قبل الإسلام ، أما شهر رجب فقد روى انه كان يسمى « رجب مضر » ^(١) ،
وانه مشتق من الترجيب « اي التعظيم » ^(٢) وقد جاء في طبقات ابن سعد ^(٣) ان
أهل مكة كانوا يحتفلون بعيد ديني لهم في رجب فلا يبعدان يكون هذا العيد في
شهر رجب عيداً خاصاً بقبائل مضر او قبائل الحجاز او بعضها ، وان يكون هذا

(١) الخازن ج ٣ ص ٢٣٠ في حديث نبوي

(٢) النسفي ج ٢ ص ٢٣٠ هامش الخازن

(٣) ج ٨ ص ٩ طبع ليون

أصل حرمة أيتمكنوا من الأياب والذهاب والقيام بمناسكهم وطقوسهم بمكة في ظل هدية مقدسة دينية . وهذا لا يعني أن تكون حرمة هذا الشهر بقيت قاصرة على قبائل مضر والحجاز ؛ بل إننا نميل إلى القول إنها عمت سائر العرب ، وإن شهر رجب صار في وقت لا يعرف أوله جزئياً إلا يتجزأ من الأشهر الحرم . وفي آية التوبة (٣٦) التي ذكرت الأشهر الحرم بدون تفريق بينها في الحرمة والشمول والتي أشارت إلى أن من اشهر السنة الاثني عشر اربعة حرماً بصيغة مطلقة وتعميمية ، والتي نزلت في ظروف كانت بلاد الحجاز فيها مهوى أفئدة العرب ، ومركز محورهم ومحجهم ، ثم في عدم تفريق العرب بين الأشهر الحرم واعتبارهم إياها سواء في الحرمة والتقدیس كما يلاحظ في الروايات الواردة تأييداً لما نقول . ولم نطلع في ما اطلعنا عليه على أولية حرمة الأشهر الحرم . والمعقول أن تكون هذه الحرمة قد تقررت لها بعد وجود موسم الحج وتقاليده واسواقه ، وبعد وجود الموسم الديني لمضر أو الحجاز بالنسبة لشهر رجب ، وإن يكون قد حدث أحداث ثأرية ، ووقعت وقائع سفكت فيها الدماء بين الناس استجابة لدواعي العصبية في أثناء هذه الموسم ، فاختلف الأمن ، وانقطع وفود الحجيج إلى مكة وتمطلت مناسك الحج ، ومنافع الناس في موسمهم واسواقه ، فحفز هذا ذوى النفوذ والسلطان والنظر والثاقب من الزعماء والرؤساء ففرضوا الأشهر الحرم وهدتها تمكيناً للناس من القيام بمناسكهم وشعائرهم وقضاء حاجاتهم . ولعل هذا الفرض كان من زعماء مكة وأصحاب السلطان وأن تكون طبقة الاحماس التي كان لها بعض الأمتيازات أو الصفات الدينية التشريعية ، والتي كان الناس يسرون على ما تسن لهم ويعتبرونه سنناً دينية واجبة التنفيذ على ما أشرنا إليه من قبل قد ساعدتهم أو شاركهم في إقراره . ويساعد على تصويب هذا التقرير ما كان اسكة من مركز ديني محترم في نظر سائر العرب ، وما كان من اهتمام عظيم لحرمة الأشهر الحرم عند زعماء مكة ، وما كانوا يقومون به من اعمال في سبيل رعايتها مما احتوت آية البقره (٢١٧) من الإشارة إليه في ما كان من استعظامهم لما وقع من المسلمين واثارتهم الضجة ضدهم وضد النبي (ص) حتى اُثرت في كثير من المسلمين بل في

النبي (ص) نفسه (١) الى ان نزلت الآية المذكورة ؛ ثم من تشديد القرآن في النهي والتنبيه على حرمة هذه الأشهر وعدم الأخلال بها ، وتنويه بما فيها من منافع حيوية للعرب على ما هو واضح في الآيات التي نقلناها قبل قليل . ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب الحديث ان زعماء مكة تعاقبوا بسبب حادث عدواني على زائر من الزوار على الأجدوا بمكة مظلوماً من الناس إلا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتي ترد عليه مظالمه ، وهو العهد المعروف بحلف الفضول (٢) والذي أثر عن النبي (ص) انه شهده وانه قال انه اذا دعي الى مثله لأجاب . ولقد ذكرت كذلك حرب الفجار وأيامها (٣) وقد كانت ضد قوم وقع منهم قتل في الشهر الحرام وشهود النبي (ص) لها وهو فتي يهتء النبل لبعض أعمامه ؛ فهذا كله مما يدعم ما كان من حرص زعماء مكة خاصة على رعاية حرمة الأشهر الحرم ، ورجحان كون السمي الأول قد كان منهم .



ولقد يكون محل للتساؤل عما اذا كان الزعماء وأصحاب الكلمة او الأعماس الذين سنوا سنة الهدنة المقدسة في الأشهر الحرم قد استهدفوا غاية أبعد من حفظ حرمة المواسم الدينية وتمكين الناس من اشتراكهم فيها بأمن وطمانينة .

وقد خطر لنا رأي في هذا الصدد رأينا عرضه دون ان نجزم بوجهته ، وهو ان هؤلاء الذين سنوا هذا التمهيد العظيم قد استهدفوا غاية أبعد من تلك الغاية وهي تضيق نطاق القتال والحروب والاحقاد بين العرب ، وتوثيق عرى الالفة والاتحاد بينهم ، تمهيداً لأيجاد تضامن عام في كيان واحد ، والدفاع عنه وحمايته مما يمكن ان يكون بعثت عليه بواعث واحداث خطيرة هزت الناس هزاً ، وجملت

(١) اقرأ ابن هشام ج ٣ ص ١٩١ - ١٩٤ ، وقد جاء في رواية ص ١٩٤

ان النبي (ص) حينما رجعت سرية عبد الله بن جحش قال لهم ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٢٥

(٣) ابن هشام ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٥

رؤساءهم يفكرون في الاستعداد لها ، واتخاذ الوسائل للرد ما ينجم عنها من
اخطار ؛ ولعل غزوات الاحباش ليمن من هذه البواعث والاطار او أهمها ،
ونستطيع ان نجد في اسماء الاشهر العربية سنداً ما لهذا الرأي .

فمن المروي الذي يسند صحته اسماء الاشهر العربية المعروفة أن هذه الاسماء
ليست هي التي كانت للأشهر في القديم ، وانها انما اطلقت مجدداً عليها . واذا
لاحظنا احتمال اشتقاق اسم رمضان من « الرمضاء » وهي الرماد الشديدة الحرارة
وقد قال هذا كثيرون ، وما في تسمية شهرى « ربيع الأول » و « ربيع الثاني »
من الاشارة الموسمية أمكننا ان نقول ان تسمية الأسماء الجديدة للأشهر كانت في
موسم الصيف ، وان الشهر الذي كان يصادف شهر رمضان كان أشد اشهر
الصيف قيظاً فاطاق عاينه اسم رمضان فيكون شهر شعبان قبله وشهر شوال بعده
من أشهر الصيف مع شهر رمضان ، وأشهر الصيف تمنع حرارتها الناس
من الحركة او بالاحري من القتال. والسبي اليه في قطر شديد الحرارة شحيح الماء ،
ثم يأتي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وهي أشهر الحج وكانت حين التسمية
الجديدة موسم الحريفة فحرم فيها القتال ؛ ثم حرم القتال في شهر رجب ، فصارت
سلسلة مؤلفة من سبعة أشهر ايس الى القتال فيها سبيل ، اربعة حرم وثلاثة هي
موسم الصيف الشديد ، وفي الاشهر الخمسة التالية للمحرم ينتشر العرب للكلاء
والمرعى شتاء وربيعاً فلا ينهون الا وقد عاد رجب المحرم وهكذا دواليك . واذا
كان لابد من قتال وطلب ثارات بسبب طبيعة الحياة البدوية وعصبية العرب ففي
الاشهر الخمسة كفاية ، وفيها مجال لتنفيس سورة الغضب والعصبية في الناس . على
ان في انقطاع الناس عن القتال سبعة اشهر متوالية مجالاً لحل ما يمكن حله من
المشاكل والعقد ، وخاصة في موسم الحج واسواقه ومجتمعاته ، ولا نقاء غضب
الناس وسكونه .

فاذا صحت لهذا الرأي وجاعته فيكون من حقنا ان نرمي في هذه السنة الجليلة
الشأن والاثردلالة على نهضة قومية وفكرية اخذت تبتدو تباشيرها في الجزيرة العربية
عقب تلك البواعث والأحداث الخطيرة ، وكرد فعل لها .

وفي بدعة النسبيء التي ابتدعت لتقديم وتأخير الأشهر الحرم والتي أشرنا إليها في مناسبة سابقة قريبة شيء من موجبات هذا الرأي أو مركزاته . فالأشهر العربية القمرية تدور مع الزمن وتصبح أشهر الشتاء منها أشهر الصيف وأشهر الصيف أشهر شتاء كما لا يخفى ؛ فابتدعت البدعة لمسايرة مواسم السنة والتوفيق بين حساب السنة القمرية والسنة الشمسية حتي يظل موسم الحج واسواقه في الخريف وتظل سلسلة امتناع القتال في الأشهر السبعة مستقرة ثابتة .

ومع اننا نعرف ان بعض الروايات (١) ذكرت ان النسبيء كان يجري احياناً بطلب من الناس ليتسني لهم متابعة حروب لهم بدأوها قبل او طلب ثارات لهم ، فاننا مازلنا نرجح انه ابتدع في الاصل لمسايرة المواسم السنوية ، وتعديل اشهر الحج تمديلاً يتسق مع امكانيات الانتقال بدون مشقة ؛ واذا كان دار يطلب لاجراض حربية او تأريفة فان ذلك جاء متأخراً ، واساءة لاءستعمال البدعة ، والى الحملة القرآنية على النسبيء انما كانت بسبب سوء الاستعمال هذا فلا يجراً الناس على انتقاص الحرمات وخرق التقاليد النافعة (٢) .

ومهما يكن من أمر فان خطورة هذا التقاليد واثره في حياة العرب الاجتماعية على تعدد وجوهها واختصاص القوة والمدى وفيها الدلالة الكافية على قوة عقول الذين انشأوه وثاقب نظرهم وسمعة تأثيرهم ونفوذهم .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٤٣ - ٤٤

(٢) في ذيل ابن هشام ج ١ ص ٤٣ تعليل مزدوج للنسبيء اي انه كان للقتال احياناً ولمسايرة المواسم احياناً .

الفصل الرابع

في

نظام الحكم والطبقات

تحميلات وقرائن وملهيات قرآنية في صدور وجود سلطات حكومية ومداهها —
ترجيح وجود سلطات حكومية في مكة في صورة مشيخة أشرف — مركز ابي
سفيان في هذه المشيخة — ترجيح تشابه الحال في الطائف ويثرب — الحالة في
القبائل البدوية — الآيات الفرآنية الواردة في صدور القضاء — ما تحتويه من الدلالات
بوجه عام — عادات وشؤون بارزة في القضاء مستلهمة من الآيات : كان الاحتكام
للقضاة اختيارياً — كان منوطاً بانفاق الطرفين — لم يكن للقاضي سلطة مجبرة —
كان عند القضاة نوع من الأنظمة والاقضية المتعارف عليها — كان القضاء إرثياً
في الغالب — العصبية الاجتماعية واثرها في التنفيذ القضائي — تطور الحالة في
العهد الإسلامي النبوي — قضاة من اليهود للعرب — القضاء عند اليهود والنصارى
في بلاد الحجاز — قرائن وتحليلات وملهيات قرآنية بوجود تفاوت طبقى معترف
به — بحث في الرق قبل البعثة والآيات الفرآنية الملهمة — ما تاهمة الآيات القرآنية
من أمور عديدة في احوال الرق والرقيق — ما يستأنس به من الروايات في صدور
ذلك إنما ما للصورة — تحرير الرقيق قبل البعثة والملهيات القرآنية في صدره —
ما يستأنس به من الروايات .

السلطات الحكومية

— ١ —

إن بيئة وودعراً مثل البيئة والعصر الذين ندرسهما ، وفيهما المدن والقرى
الكثيرة التي كان أهلها على جانب غير يسير من الحضارة ، والاتصال بالعالم المتمدن
لا يعقل بطبيعة الحال ان يكونا خاليين من سلطات حكومية وقضائية بشكل من
الأشكال ، تبعث في نفوس الناس الهيبة والشعور بأحترام حقوق بعضهم ، وما

درجوا عليه من عادات وتقاليده وواجبات متبادلة ، وتوقيف البناة والأشرار
والمفسدين والشاؤون عند حدهم ، وان يكون كل هذا منوطاً بوازع المصيبات
الاجتماعية وحده معها كان قوته وأثره .

ونريد في هذا البحث ان ندرس ما في القرآن من الدلالات والقرائن التي
تساعد على اقتباس صورة لنظام الحكم في ذلك العصر والبيئة .
ففي القرآن اولاً آيات تذكر « اولى الأمر » وتوجب طاعتهم ورد الأمور
اليهم كما ترى في ما يلي :

١ - يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم ...
النساء ٥٩ .

٢ - واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردهه الى الرسول
وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم
وأولو الأمر هم أصحاب القيادة والرأسة والسلطان على ما قاله بعض المفسرين .
والمرجح ان الآيات قد ارادت ذلك .

والمسئلة هنا هي ما اذا كان هذا التعبير مما كان مستعملاً قبل البعثة ويراد به
أصحاب القيادة والرأسة والسلطات ، وما اذا كان في مكة والطائف ويثرب مثلاً
أصحاب حكم وسلطان ورأسة يطلق عليهم هذا التعبير .
اننا نميل الى النفي او الشك على الأقل في الاجابة وخاصة بالاستلزام من القرآن
اذا كنا نريد ان نفهم من هذا التعبير ذلك النوع من الحكومات التي تفرض وجودها
وإرادتها فرضاً ، وتستند في ذلك الى قوة تنفذ ارادتها وتؤيدها في وجودها
وفرض ارادتها ، فإنه ليس في هذه الآيات وما ورد في القرآن مما يماثلها او في
معناها ما يساعد على القول بوجود سلطات حكومية وقضائية منظمة ونافذة . بل
ان اسلوبها ليأمر انها كانت بسبيل تنظيم وتوطيد سلطان ذي قوة اجرائية نافذة
لم يوجد بعد ولم يعتد عليه .

- ٢ -

غير ان هذا لا يعني نفي وجود سلطات يرجع اليها في مهم الأمور والاحداث ،

ويكون في استطاعتها ان تبعث الهيمية الاحترام في الناس ، وان تحملهم على الطاعة والوقوف عند حدودهم بشكل من الاشكال ؛ كما ان في بعض الآيات والتساير القرآنية وفي بعض روايات السيرة قرآن ووقائع تساعد على ثبوت وجود شيء من هذا .

فقد ورد في سورة مريم مثلاً كلمة « ندى » في الآية التالية :
واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا الذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً .
٧٣

وورد في سورة العلق كلمة « ندى » في الآيات التالية :
« كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فايدع يديه . سندع الزبانية . كلا لا تطعه وأسجد واقرب ... ١٥ - ١٨

وقد فسر المفسرون كلمة « الندى » بمجاس القوم ودار مشورتهم ، وكذلك كلمة « الندي » . وروح آية مريم توحى بتحدي الكفار للمؤمنين ، ومفاخرتهم لهم بمجالسهم وقوتهم ؛ وروح آية العلق توحى بتحدي القرآن للطاغية في دعوة مجاسه ليفعل ما يريد ، وبأنذاره بقوة زبانية الله - أي منفذي أوامره - ثم تأمر النبي (ص) بعدم الاكثرات لتهديد ووعيده . ومما يلفت النظر ورود آية في سورة مريم بعد الآية التي نقلناها فيها انذار للكفار بأنهم سيصلون من هو اضعف جنداً رداً على تحديهم ومناظرتهم : « فسيصلون من هو شر مكاناً واضعف جنداً » ، مما يمكن ان يكون قرينة ما على ان الذين كانوا يفاخرون المؤمنين بنديهم هم من اصحاب السلطان في مكة .

وقد ورد في سورة الأأنفال في سياق التذكير بما كان من الكفار من تأمر على النبي (ص) هذه الآية :

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ... ٣٠
وقد فسر المفسرون كلمة « يثبتوك » بمعنى ليحبسوك . وروح الكلمة تلهم معنى « النبي » في تعبير « يخرجوك » كما تلهم صحة تفسير المفسرين لكلمة « يثبتوك » ، ومؤدى هذا انه كان في مكة قوة او سلطة ما تستطيع ان تنفي وان تحبس .

وفي القرآن آيات جاء فيها تعبير الاخراج وحده ومع الهجرة كما نرى :

١ - فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا ...
آل عمران ١٩٥

٢ - الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .. الحج ٤٠
فتعبير « الاخراج » في الآيات وان كان مما يتبادر الى الذهن ان يكون قد قصد به
اضطرار المسلمين الى الخروج والهجرة بسبب الاذى والاضطهاد فأنت فيه معنى
الاجراج بالقوة او النفي ايضاً اما مباشرة واما بسبب ما احيط به ضعفاء المسلمين
من مظاهر الاعنات والاذى بتدبير زعماء مكة ورؤسائها وأصحاب الشأن
والسلطان فيها .

ونذكر في هذا المقام الموقف الجحودي العنيد للدعوة النبوية في مكة الذي
شمل اكثرية سكانها الساحقة ، وقاده الزعماء والرؤساء ، مما استفاضت به الآيات
القرآنية المكية بحيث يجعلنا نكتفي بأيراد مثلين من ذلك :

١ - وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء الذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل
أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لوهدانا الله لهديناكم سواء علينا
أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ...
ابراهيم ٢١

٢ - وانطلق الملاء منهم أن امشوا واضربوا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد
ص ٦

حيث يوحيان انه كان هناك « ملاء » اي أشرف وأصحاب نفوذ يأمرون
وجهور يؤمر ويتبع . فهذا الموقف بهذه الصورة يوحى ان يكون القادة والزعماء
أصحاب سلطان وقوة لم يكن بد للجمهور من الائتار بأمرهم ، واتباعهم في موقفهم
وتوجيههم ...

ولقد وردت كلمة « السجن » في عدة آيات في سورة يوسف منها الآية التالية :
« ثم بدلهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان

— ٣٥ —

فورود لفظ السجن في القرآن دليل على انه كان مفهوم الدلالة ، وقرينة على انه

كان معروفاً ومستعملاً في البيئة التي كان القرآن ينزل فيها ، وعلى انه كان هناك قوة تستطيع ان تستعمله كما هو المتبادر ؛ ومثل هذا يقال في صدد تعبير « حرس » الذي جاء في احدى آيات سورة الجن : « وانا لمسنا السماء فوجدناها مئت حرساً شديداً وشهباً » حيث يدل هذا التمييز على انه مفهوم للدلالة ، ويلهم بأنه كان هناك سلطة ما تستخدم حرساً ولو كان جاء في صدد حرس الله في السماء .



ونشير هنا بالأضافة الى هذه القرائن القرآنية الى المهام التي ذكرتها آية التوبة (١٩) وهي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لنقول اننا نرجح بأن هذه المهام لم تكن شخصية او عائلية مجردة من ملابسات أخرى ، وأن البيوتات التي كان يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها أرتجالاً وبقوتها الخاصة فقط ، بل أنها كانت مهام ذات صفة او سلطة رسمية ما اضطلعت بها هذه البيوتات . وعلى هذا فإنه من الممكن ان يقال كذلك ان المهام الأخرى التي ذكرتها الروايات (١) مع هذه المهام وهي « الرقادة » اي قرى الحجاج « والسفارة » بين أهل مكة وغيرهم حين طرؤ احداث تقتضى ذلك و « قيادة الجيش » في الحرب و « عقد اللواء » و « أصحاب الراية » لم تكن هي الأخرى شخصية بل كانت مثابها ذات صفة او سلطة رسمية ما اضطلعت بها البيوتات التي كان ممثلوها يقومون بها بهذه الصفة .

ولقد حكمت آيات في سورة النمل المحاوراة التي جرت بين ملكة سبأ ورجال حكومتها كما ترى فيها :

« قالت ياأيها الملا افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلت اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ... »

٣٢ — ٣٥

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وأسد الغابة ج ع ص ٥٣

والمبتدأ ان هذه المحاوره لم تحتو شيئاً غريباً على استماع السامعين من حيث المفهوم بالاضافه الى القصة نفسها .

ولقد احتوت آيات عديدة تعبيرات لا تكون إلا في ظروف حكومية وساطات رسمية في الاغلب مثل الجند والملك والمعهد والميثاق والسلم كما ترى في الامثلة الآتية :

- ١ - ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك . البقرة ٢٥٨
- ٢ - إلا الذين يصابون الى قوم بينهم وبينهم ميثاق . النساء ٩٠
- ٣ - وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . الانفال ٦١
- ٤ - الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة . = ٥٦
- ٥ - . . . فسيعتصرون من هو شرمكاناً واضف جنداً . مريم ٧٥
- ٦ - . . . اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها . الاحزاب ٩

— ❦ —

فاذا ربطنا هذه الحلقات في سلسلة واحدة ، وأضفنا اليها أن أهل مكة لم يكونوا منقطعين عن العالم المتمدن بل كانوا شديدي الصلة به ، وكانوا يعرفون اشياء كثيرة عنه بما في ذلك ما عنده من حكومات وولاة وشرطة وجند الى غير ذلك من مظاهر الحكومات ووسائلها ، كما انهم اقتبسوا منه كثيراً من وسائل خضارته وترفه جاز لنا ان نقول إنهم لا بد من ان يكونوا قد اقتبسوا شيئاً من تلك المظاهر والوسائل ، وواضح مع بيتهم ، فكانت لهم بذلك وسائل ومظاهر حكومية تسد الفراغ الذي لا غنى عن سده في بيئة مثل بيتهم .

وما دما نعلم من الروايات المتواترة أن رؤساء ونهلاء البيوت الشريفة هم الذين كانوا يتولون المناصب الدينية والمدنية في مكة فاننا نستطيع ان نقول إنه كان في مكة حكومة شيوخ الاشراف او مشيخة الاشراف ، وإن سلطتها كانت دينية ومدنية معاً ، وإن اصحاب مناصبها الرئيسية كانوا يتولون مناصبهم ارثاً عائلياً حسب طريقة كانت جارية عندهم .

واذا ذكرنا ما كان لابي سقيان بن حرب في عهد النبي (ص) من مركز ، وكيف كان يقود الجيش ويدير الحروب ويمقدنا اليهود ، وكيف ان العباس بن

عبد المطلب عم النبي (ص) وهو احد زملائه في حكومة الاشراف التي به الى النبي (ص) بقوة دالته عليه ، ومكان قرابته منه وهو على ابواب مكة يوم الفتح لييايمه ، وكيف ان النبي (ص) استقبل هذه البيعة بأرتياح ، وكرم اباسفيان بأعلان الأمان لمن يدخل بيته مما ذكرته الروايات المديدة (١) استطعننا ان نقول انه هو الذي كان رئيس هذه الحكومة او المصو الناخذ الاول فيها قبيل البعثة .



ونرجح ان الحالة في المدن الاخرى كالطائف ويثرب كانت على شيء مما كانت عليه الحالة في مكة . ولقد ذكرت الروايات ان الخزرج وهي كبرى قبيلتي يثرب كانوا ينظمون لعبد الله بن أبي لآلىء التاج ليعلموه ملكا على يثرب قبيل الهجره النبوية ؛ مما يمكن ان يستأنس به في دعم مارجحناه . كذلك يمكن ان نجد في آيات الزخرف :

« قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أمهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ... » ٣١-٣٢

قرينة ما بالنسبة الى الطائف التي هي احدى القريتين على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، فضلاً عن ما فيها من قرينة عامة تشمل مكة ويثرب ايضاً ؛ حيث تلهم انه كان في الطائف عظماء ذوو نفوذ كما كان في مكة ، وحيث تحكي قول المشركين انه لو كان حقاً لكان أنزل على رجل من رجالات مكة او الطائف العظام ؛ على اعتبار ان هؤلاء هم الذين يستطيعون ان يسنوا للناس السنن وان يخطوا لهم الطارق وان يأمرهم بالتباعا فيجدوا فيهم الاستجابة اليهم نظراً لسلطانهم ونفوذهم . وفي

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ و ٣٤٦ - ٣٨١٢ وج ٣ ص ٦٥ و ٦٩ - ٨٩ .
٢٣٠ و ٢٣٣ و ٢٣٨ . ولعل هذا يدعم بما كانت من تطالع بني أمية الى الحكم والسلطان واعتبارهم انفسهم الاولى به بعد موت النبي (ص) وخاصة بعد استشهاد عمر بن الخطاب (رض) .

الرد الذي احتوته الآية الثانية قرينة قوية أخرى ، حيث ترد عليهم متددة بما مؤداه
انهم اذا كانوا يرون انفسهم أصحاب سلطان ونفوذ ، واذا كان الله قد شاء ان يرتفع
الناس بعضهم على بعض فأتما هذا وذلك هو لتدبير امور الدنيا حيث يكون بعض
الناس آمريين وبعضهم مسخرين .

- ٦ -

اما البادية فليس في القرآن ما يساعد على اقتباس صورة لنظام الحكم فيها ،
او على القول مجزم انه كان للسلطات الحكومية في المدن امر نافذ عايمها .
والذي نميل الى ترجيحه هو ان شيوخ القبائل البدوية وذوو الكلمة والشأن
والرأسة فيها هم الذين كانوا اصحاب السلطة والحكم في قبائلهم ، بالتوارث ابناً عن
اب ، وبلاستقرار على الاغلب في بيوت معروفة ؛ وانهم هم الذين كانوا يقودونها
في المعارك ، ويمثلونها في الشؤون الخارجة ، ويزعونها في التصرفات الداخلية ،
ويحقدون باسمها المواثيق السامية والخلفية ، ويضعون الناس في اقدارهم ،
ويردعون الاشرار عن شرورهم ، ويقررون ما ينبغي ان يقرر من خطط وسنن
لحفظ كلمة القبيلة ومركزها وكرامتها واحقاق الحق لاصحابه فيها ؛ وتدعم ذلك
العصبيات الاجتماعية المتنوعة ، كذلك فاننا نميل الى القول انه لم يكن يخاو الامر
من كلمة نافذة ، وسنة ماضية للسلطات الحكومية في المدن في القبائل التي تكون
حولها او تكون صلتها اشد واوثق ، حيث لا تستطيع هذه القبائل إلا رعايته لأن
في ذلك مصالح متنوعة لها مما يتصل بعوامل الرغبة والرغبة والحاجة وظروف
البيئة المشتركة ؛ وقد يصح الجزم خاصة بالنسبة الى السنن التي تسنها المدن للحياة
الاجتماعية والدينية ومظاهرها مما يمكن قدرأً مشتركاً بين الحضر والبدو . وقد
مرينا صور متنوعة لما كان نافذ المفعول على الناس جميعهم بدوهم وحضرهم من
هذه السنن والمظاهر .

السلطات القضائية

— ٧ —

ان هذا الذي قلناه آنفاً والصورة التي رسمناها انما تتعلق بالسلطات الحكومية بصورة عامة وخاصة بالسلطات العليا منها .
ولقد ورد في القرآن آيات عديدة يمكن ان تساعد على الاستدلال على وجود سلطات او مراجع قضائية لحل ما لا بد من وقوعه بين الناس من مشاكل وخلافات .

(١) ففي بعضها ورد ذكر « الاحكام » في صدد نهى الناس عن اكل اموال بعضهم بالباطل . والرجوع الى الاحكام واغرائهم او الاحتيال عليهم للوصول الى احكام تساعد على اكل اموال الناس بالاثم ايضاً : ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الاحكام لتأكلوا فريقاً من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون .
١٨٨ البقرة .

(٢) وفي بعضها وردت تعابير « التحاكم » و « الحكم » و « الحكم » و « حكم الجاهلية » في صدد القضاء بين الناس كما ترى في الآيات التالية :
١ — إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهليها واذا حكمتهم بين الناس ان تحكموا بالعدل . . .
النساء ٥٨

٢ — ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . . .
النساء ٦٠-٦١

٣ — فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . . .
النساء ٦٥

٤ — إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . . .
النساء ١٠٥

٥ - وإن خفتهم شقاق بينهم فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا
اصلاحاً يوفى الله بينهم . . . النساء ٣٥

٦ - فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك
شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك
وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا
التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أساموا للذين هادوا والربانيون
والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس
واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون
المائدة ٤٢ - ٤٤

٧ - وإيحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . . المائدة ٤٧

٨ - احكم الجاهلية ييغون (١) ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . . .
المائدة ٥٠

٩ - وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن
يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم أتوا بأم يخافون أن يحيف
الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله
ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . . .
النور ٤٨ - ٥١

(٣) وفي بعضها وردت تعابير الشهود والشهادة والاستشهاد في صدد القضاء
بين الناس وحفظ حقوقهم كما ترى في الآيات التالية :

١ - واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان
من ترضون من الشهداء أن تضل أحداها فتذكر إحداها الأخرى ولا ياب الشهداء
إذا مادعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم اقتسط عند الله
واقوم للشهادة وأدني ألا ترتابوا إلا إن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس

(١) السؤال التنديدي في حق اليهود

عليكم جناح الاية كتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد . . .

البقرة ٢٨٢

٢ - ولا تكونوا الشهاده ومن يكتمها فإنه آثم قلبه . . . البقرة ٢٨٣

٣ - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم

او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن

تعدلوا وإن تلوا او تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . . . النساء ١٣٥

٤ - يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا

عدل منكم او آخران من غيركم ان اتم ضربتم في الارض فأصابكم مصيبة الموت

تحبسونها من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي

ولا نكنتم شهادة الله إنا اذا لمن الآثمين . فإن عثر على انها استحق اثمها فآخران

يقومان مقامها من الذين استحق عليهم الاواي ان فيقسمان بالله لشهادتنا احق من

شهادتها وما اعتدنا إنا اذا لمن الظالمين . ذلك أدنى أن يأتيوا بالشهادة على وجهها او

أشهدوا يخافوا ان ترد أيمان بعد ايمانهم واتقوا الله وسمعوا . . . المائدة ١٠٦ - ١٠٨

٥ - فاذا بلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا

ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله . . . الطلاق ٢



فهذه المجموعة من الآيات تحتوي كما رأيت تعابير وطرائق ووسائل قضائية

متنوعة ؛ واذا كان في بعضها ما يدل على انه تشريع قرآني للنبي (ص) والمسلمين

او توطيد قرآني لتنفيذ حكم النبي (ص) وقضائه وايجاب التحاكم اليه فان لهجتها

التقريرية من جهة ومضامين اكثرها وصيغتها من جهة اخرى تدل على سابق إلفتها

واستعمالها في مدلولات قضائية مفهومة من قبل السامعين ، مما يجعلنا نقول انه كان

في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة قضاة وحكام يتحاكم الناس عندهم في

مشاكلهم الاقتصادية وغير الاقتصادية كالارث والانكحة والديون والدماء وحقوق

الملك والنزاعات التجارية والمالية الاخرى بما درج عليه العرف والتقاليد ، وانه

كان للقضاة والحكام او للقضاء طرائق يسار عليها ، واصولاً يرجع اليها في استماع

الشهادات وتقديم البينات ، والادلاء بالحجج ، وأن هذا لم يكن خاصاً بالحضر بل كان يشمل البدو والحضر ، ونفى انه كان قضاة وحكام في البدو كما كان في الحضر أيضاً ، دون ان يكون هذا مانعاً من القول بترجيح ارتقاء القضاء وطرائقه في الحضر بالنسبة للبدو ، لتفوق الحضر على البدو في الحضارة ومظاهرها ، وما يستتبع هذا من تنوع في المشاكل ، وتفان عند الحضر لا يكون عادة في البدو والبادية .

— ٩ —

ومن الآيات التي استعرضناها يمكن ان يستدل على أمور بارزة في نظام القضاء في ذلك العصر والبيئة .

منها أن الاحتكام الى القضاة والحكام كان اختيارياً مهما كان نوع القضية . نعي ان صاحب الحق اذا احب ان يرجع الى القضاة والحكام رجع ، والافليس هناك شيء يقال له حق عام تتولى ملاحقته سلطة قضائية عامة ومأزومة ؛ وهذا يستأنس عليه بآيات النساء (٦٠ - ٦١) والمائدة (٤١) والنور (٤٨) ، والمتبادر أن الذين لا يأتون الى القضاة يكتفون من الأقوياء الذين يعتمدون في اخذ حقوقهم والانتصاف لانفسهم على قوتهم الشخصية والعصبية ، ومن المعقول أن يكون هذا في الدرجة الاولى في البادية وإن لم يكن قرينة قرآنية على ذلك .

ومنها أن الاحتكام الى القضاة والحكام كان منوطاً باتفاق الطرفين المتخاصمين فاذا رجع أحد الطرفين قاضياً فليس لهذا القاضي قوة تهيئ الطرف الثاني على المثول لديه ، فاذا احب هذا ان يجيب الدعوة كان به والا فلا إجبار قضائي عليه . ويستأنس على هذا بآيات النساء (٦٠ - ٦١) و (٦٥) وآيات النور (٤٨ - ٥١) . كذلك فإنه لم يكن للقاضي سلطة اجبارية على الشهود تضطرم الى الحضور بين يديه وأداء شهاداتهم ، حيث كان هذا منوطاً بالشهود انفسهم ان شاءوا حضروا وشهدوا والا فلا ؛ وبعض ما جاء في آية البقرة (٢٨٢) يلهم ان بعض الشهود كان ينالهم أذى من جراء شهادتهم ، وقد يكون هذا كما كان يحملهم على الامتناع .

ومنها ان الخصوم هم الذين كانوا يختارون القاضي الذي يحاكمون لديه بعد ان

يكونوا قد اتفقوا مبدئياً على القاضي . ويستأنس على هذا بآيات النساء (٦١ - ٦٥)
والمائدة (٤٢ - ٤٤) .

ومنها - انه ليس من شأن القاضي ولا من سلطته ان يجبر المحكوم عليه بانفاذ
الحكم واعطاء الحق المحكوم به لصاحبه . ويستأنس على هذا بآيات النساء (٦٥)
والنور (٤٨ - ٥١) ؛ فالقاضي يصدر حكمه بعد استماع الدعوى والبيانات وتقف
مهمته عند هذا الحد . فاذا اذعن المحكوم عليه من نفسه للحق او اذا كان لخصمه
قوة عصبية لا يرى لنفسه مناصاً من الاذعان رهبة منها كان به ، وإلا فالامر يتوقف
حينئذ على المحكوم له ، وما يستطيع ان يفعل في هذا الموقف .

ومنها - انه كان نوع انظمة او ا قضية معروفة يحكم بها القضاة في الاحداث
المتماثلة . ويستأنس على هذا بآية المائدة (٥٠) التي يفهم منها ومن السلسلة
السابقة لها (٤٦ - ٤٩) ان اليهود راجعوا النبي (ص) في قضية على أمل ان
يحكم فيها وفق الا قضية العربية السابقة المعروفة فلم يحقق املهم ، لأنه أراد ان يحكم
او حكم فيها وفقاً للشريعة التوراتية او لأمر الله بأن لا يحكم الا بما أنزله الله عليه من
الكتاب وان لا يتبع اهواءهم ويسايرهم في ما يريدون .
وتعميماً على هذا كله نستطيع ان نقول :

اولاً ان القضاة والحكام كانوا في عصر النبي (ص) وبعثته قبل البعثة قضاة
وحكاماً بالعرف والتقليد ، وبما يكونون قد اكتسبوه من التجارب والوقائع من
خبرة ومران وسمعة وأسم ، وايسوا قضاة رسميين تختارهم السلطات الرسمية التي
كانت تقوم في ذلك المجتمع وتمدهم بنفوذها . وهذا ما نرى مثله اليوم في المجتمعات
والحياة البدوية . ولا نستبعد ان يكون القضاء إرثياً ينتقل من الأب الى الابن ، وتشتهر
به البيوتات ، فيتخرج الابناء على آباءهم في ما يشهدون لديهم من الوقائع والا قضية .
ثانياً ان مركز القضاة السليبي في ما يتعلق بالأجبار كان ولا ريب يسد
فراغه ما كان من تقاليد العصبية الاجتماعية على انواعها من عائلية ، وقبيلية ،
وحلفية وولائية وجوارية وهذا مما يظهر اثر هذه العصبية العظيم وضرورتها
اللازمة في المجتمع العربي .

ولقد ظلت هذه الأنظمة او الحدود القضائية على حالها الى ما بعد بعثة النبي (ص) بل الى ما بعد الهجرة النبوية بمدة غير قصيرة ، ثم اخذ الأمر يتطور بتطور السلطان الاسلامي وتوطده في شخص النبي (ص) كما هو واضح في الآيات الى ان حل الاجبار محل الاختيار في التقاضي لدى النبي (ص) وفي الاستجابة الى دعوته اذا دعا وفي تنفيذ حكمه اذا حكم ، وصار هنالك معنى لمق عام يلاحقه النبي (ص) الذي كان يمثل السلطان والقضاء الاسلامي في حق الذين يقتربون الجرائم ويعيشون في الارض فساداً .

هذا ؛ وآيات النساء ٦٠ - ٦١ تلهم أنه كان من اليهود قضاة اعتاد العرب التحاكم لديهم ، حيث قل جمهور المفسرين ان « الطاغوت » في الآيات (٦٠) عنت قاضياً يهودياً هو كعب بن الاشرف . والأرجح ان عرب المدينة ومنطقتهما هم الذين كانوا يفعلون ذلك لأنه لم يكن في مكة والطائف جالية يهودية ذات شأن على ما سلف القول ، كذلك فان آيات المائدة ٤١ - ٤٤ تلهم ان احبار اليهود وربانيهم هم الذين كانوا يتولون القضاء بين أصحاب المشاكل من اليهود انفسهم ؛ على أساس الشريعة التوراتية . والآيات تلهم ان الاسلام قد اقرهم على هذا اذا شاؤوا أن لا يتقاضوا الى المساهين على شرط ان تكون احكامهم مستمدة من التوراة . ولعل هذا الحال كان بالنسبة الى النصارى الموجودين في مكة او غيرها من الحجاز ولعل آية المائدة (٤٧) مما يلهم ذلك ايضاً .

التفاوت الطبقي

ان ما تقدم في هذا الفصل من ابحاث واستدلالات ، سواء بما يتعلق منها بوجود طبقة الاحماس التي كانت من بيوت معينة يتوارث مركزها وحقوقها الابناء عن الآباء ، وما كانت تفرضه للناس من سنن وتقاليد ، وتراه لنفسها من امتياز يخولها الترفع عن الناس ؛ او بما يتعلق بالبيوتات الشريفة التي كان يمثلوها

يتوارثون النفوذ والمناصب الرئيسية العليا الدينية والمدنية في مكة وأندادهم في الطوائف وغيرها ، او التي كان لمشايها البارزين التقدم على الناس في الافاضة والاجازة وإنسا- الأشهر الحرم حقاً ارثياً ؛ او بما يتماق بطبقة القضاة والحكام الذين رجحنا انهم كانوا يتوارثون القضاء ، او بما يتماق بزعماء القبائل واصحاب الشأن والسلطات عليها الذين كانت زعامتهم في الاغلب إرثية هي الاخرى يحدو بنا الى التساؤل عما اذا كان يصح ان يقال انه كان في بيثة النبي (ص) قبل البعثة نظام طبقات ما ؟ نساءل عن هذا ونحفظ في كلمة « نظام » ونقول إنما لا نقصد منها نظاماً لتقسيم الطبقات كما كانت الحالة في الهند مثلاً ، وإنما نقصد ما اذا كان هناك شيء معترف به ومؤثر تقليدياً من تفاوت الطبقات وتمايز بعضها عن بعض ، ووجود طبقات عليا وطبقات سفلى ، وطبقات مسخرة وطبقات مسخرة ، وطبقات اشرف وطبقات سوقة وعوام ...

ونميل الى الايجاب في الجواب ، فالآيات التي استعرضناها ، والدلالات والقرائن التي رأيناها فيها ، وما دعمها من روايات السيرة ورفائنها تساعد على هذا الجواب الايجابي . وخاصة آيات الزخرف ٣١ - ٣٣ التي حكمت استنكار طبقة العظيمة لتزول القرآن على النبي (ص) دونها .

على انه يوجد آيات اخرى يمكن ان تسند هذا الجواب وتؤيده كما ترى في ما يلي :

١ - اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ... البقرة ١٦٦

٢ - وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءتنا فأخواننا السيئلا ... الاحزاب ٦٧
٣ - وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً ... سبأ ٣٣

٤ - فيقول الضعفاء الذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ... غافر ٤٧

٥ - يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عدي ان يكونوا خيراً منهم

ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا
بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأوائمكم الظالمون... الحجرات ١١
٦ - يأيها الناس انا خلقياكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير... الحجرات ١٣

- ١٢ -

فنحن لا نعتقد أن القول بأن التفاوت بين طبقات المجتمع البشري مظهر عام
في كل زمن ومكان يكفي لتعايل التفاوت الذي تلهم وجوده هذه الآيات في عصر
النبي (ص) وبيئته ويبرر جعله من نوع التفاوت العادي العام . وفي هذه الآيات ثم
ما في توارث الزعامات والمناصب والرأسات والامتيازات الدينية مما اثرنا اليه قبل
ملهات قوية مؤيدة لما قلناه من وجود تفاوت طبقي في ذلك العصر والبيئة مستقر
ومعترف به .

وآية الحجرات (١٣) بمثابة صرخة داوية تعلن للناس أنهم سواء في أصل
الخلق وفي حق الحياة وفي الاستمتاع بالحرية فيها ، وأن اكرم الناس عند الله هم
المتقون الذين يوفون بواجباتهم الدينية والدينية مستشعرين بعظمة الله و ليسوا هم
العظماء والتكبراء وابناء البيوتات الشريفة بسبب التقليد الطبقي الذي درجوا عليه ؛
وهذه الصرخة من اقوى القرائن في ما يتبادر لنا على وجود ذلك التفاوت الطبقي
حيث استهدفت هدمه ، والتسوية بين الناس في الحقوق والواجبات ، وطبيعي أنه
لا يقال إنها استهدفت نفس التفاوت العام الذي كان ولم يزل سنة من سنن
الاجتماع البشري والذي يتمثل في فقر فريق وغنى فريق آخر وقوة فريق وضعف
فريق اخر وكثرة فريق وقلة فريق اخر الخ ...

الرق همد العرب قبل البعثة

- ١٣ -

والرق مظهر من مظاهر التفاوت الطبقي كما لا يخفى ، ولقد كان في عصر النبي
(ص) وبيئته قبل البعثة من التقاليد الراسخة ، وكان فاشياً بعماس واسع ، وقد

وأينا إفراد بحث خاص عنه في هذا الفصل بسبب ذلك وعقب البحث السابق للتناسب القائم بينهما ، مع التنبية اننا لا نعني بطبيعة الحال ان الرق كان حالة خاصة بالبيئة العربية ، حيث كان نظاماً عاماً شاملاً مختلف البلاد والبيئات ومنذ العصور القديمة . ولقد ورد في القرآن آيات كثيرة متنوعة الاهداف والاساليب حول الرق والرقيق يمكن الاستدلال بها على اشياء كثيرة مما كان عند العرب عنها ، واليك هي :

١ - يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد . والآثى بالآثى ... البقرة ١٧٨

٢ - ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولا أمة سائمة خير من مشرك ولو أعجبكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا وللعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ... البقرة ٢٢١

٣ - فان خفتن ألا تعبدوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ... النساء ٣

٤ - من هذا الباب آيات النساء ٢٤ و ٢٥ التي نقلناها في ما سبق .

٥ - واعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والساحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ... النساء ٣٦

٦ - وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراودفتانها عن نفسه ... يوسف ٣٠

٧ - ضرب الله مثلاً عبداً ملوكاً لا يقدر على شيء ومن وزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهرأ هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ... النحل ٧٥

٨ - وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغفرهم الله من فضله والله واسع عليم ، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغفرهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن عاثم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تذكروا فتياتكم على البغاء إن اردن تحسناً ...

النور ٣٢ - ٣٣

٩ - ويسألك في هذه السلسلة آيات النور ٣١ و ٥٨ التي نقلناها سابقاً .

- ١٠ - ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ... الروم ٢٨
- ١١ - ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ... الزمر ٢٩
- ١٢ - ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ... الطور ٢٤
- ١٣ - يطوف عليهم ولدان مخلدون ... الواقعة ١٧
- ١٤ - والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ... المعارج ٢٩ - ٣٠

- ١٤ -

ويستطاع ان يستلهم من هذه المجموعة بسبب ما احتوته من مصطلحات عربية لا بد ان تكون معروفة عند العرب قبل نزولها الامور التالية :

- ١ - إن الرق كان فاشياً في الاوساط العربية .
- ٢ - إن الرجال والنساء على السواء كانوا يملكون الرقيق .
- ٣ - إن من العرب من كان يملك عدداً كبيراً من الرقيق ،
- ٤ - إن الرق كان يتناول الذكور والاناث .
- ٥ - إنه كان يطلق على الرقيق تعبيرات « العبد » للمفرد و « العباد » للجمع من الذكور و « الأئمة » للمفرد و « الأماء » للجمع من الاناث . كما كان يطلق عليه تعبيرات « المملوك » و « الغلمان » و « الولدان » و « الفتى » و « الفتاة » وتبعاً لاستعمال تعبير الغلمان والولدان فانه كان يستعمل ايضاً تعبير « غلام » و « ولد »
- ٦ - إن تعبير « الفتى » و « الفتاة » كان يطلق من باب التلطف والتعجب ، وان تعبير « الغلمان » و « الولدان » كان يطلق على الارقاء الذكور الذين لم يصلوا بعد الى سن كبيرة والذين يقومون بخدمة مالكيهم الخاصة .
- ٧ - إن تعبير « العبد » للذكر و « الأئمة » للإثني هو الذي كان فاشياً على الاغلب . وقد كان يستعمل تقيض تعبير « الحر » و « الحرة » تماماً .
- ٨ - إن لفظ العبد مشتق من العبادة التي هي الخضوع . ولذلك نرى هذا

التعبير قد استعمل في آيات كثيرة مفرداً وجمعاً في صدد نسبة الناس الى الله ولا سيما الانبياء والصالحين والملائكة ، مع التنبيه ان هذا ورد احياناً ليؤدي معنى اللطف والأعزاز باعتبار أن الخضوع لله هو الخضوع الحق الذي ليس فيه تلك الغضاضة والهوان اللذين يكونان في عبودية الانسان الانسان .

٩ — إنه كان يملك العبد او الأمة اكثر من مالك واحد شراكة .

١٠ — ليس من شأن العبد او الأمة ان يكون له ملك أو ثروة خاصة .

١١ — ان الرقيق كان أحياناً عرضة للاساءة والقسوة من مالكيه بدليل التوعية

باحسان معاملته .

١٢ — إن مالكي الرقيق كانوا يسخرون عبيدهم وإماءهم في اعمالهم وخدماتهم

المتنوعة .

١٣ — كان من الممكن ان يشتري الرقيق نفسه من مالكيه اذا وافق المالك

على ذلك ، وكان من طرائق هذا الشراء « المكاتبه » وهي تعهد العبد بايراد مبلغ معين الى سيده ضمن مدة معينة ثمناً لنفسه ، على ان يسمح له بالتكسب للحصول على هذا المبلغ ، وهذا مستلهم من صيغة آية النور ٣٢ حيث تاهم انها تشجع على حالة العتقة .

١٤ — كان مالكو الأماء لا يتساهلون في تزويج إماءهن وكان هذا مما يدفع

الأماء الى الارتكاس في البغاء .

١٥ — إن مالك الأماء كان ينكح من إماءه ما يريد بدون تقييد بعدد وبدون

عقد نكاح باعتبارهن ملك يمينه يتصرف فيهن كما يشاء . ولا يسمى هذا زواجاً .

١٦ — لم يكن العبد ولا الأمة يستطيعان التزوج إلا باذن سيدهما .

١٧ — كان من الجائز أن يتزوج الحر بأمة اذا أذن سيدها .

١٨ — لم يكن الزواج من الأماء شيئاً مرغوباً فيه من قبل الأحرار . وإنما

يتزوجهن العبيد على الأغلب واذا تزوجهن حريكون بسبب الفقر وعدم استطاعته التزوج بالحره .

١٩ — لم يكن من السائع ان يقتص من حر بعبد . فاذا قتل حر عبداً لا يقتل

به . ويقتل العبد بالحر طبعاً .

٢٠ — كان الأماء أكثر تعرضاً للبقاء وارتكاساً فيه .

— ١٥ —

ولا كمال الصورة فلحق بالمهيات القرآنية المذكورة بمض ما كان من عادات استناداً الى الروايات المتواترة :

١ — كان الرقيق بمثابة الاموال المقومة والمنقولة ، يباع ويشترى ويورث ويؤجر .

٢ — ابناء الأماء من سيدهن احرار ؛ غير انهم ينزون بنز « الهجين » لمكان امهاتهم من العبودية .

٣ — ان ابناء الاماء من أزواجهن الأحرار عبيد لسيدهن . وكذلك ابناء الاماء من أزواجهن العبيد .

٤ — اذا ولد لامة من مالكا ولد تسمى أم ولد ولا يصح عليها بيع ولا شراء ولا هبة . وتصبح حرة بموت سيدها .

وواضح مما اردناه انه كان للرقيق شأن عظيم ، وكان يشغل حيزاً واسماً في ذلك العصر والبيئة ، وانه كان عليه معول اقتصادي ومعاشي كبير . فمن المعقول والحالة هذه أن يكون الناس وخاصة الزعماء والرؤساء والأغنياء قد استكثروا منه ، واعتبروه جزءاً مهماً من وسائل حياتهم الاقتصادية والمعاشية .

ومصدر الرقيق الأول السبي في الحروب كما هو معلوم . فالقبيلة التي كانت تغلب القبيلة العدو تستلعب ان تسي نساءها واطفالها بل ورجالها وان تسترقهم وان تتصرف بالسبي تصرف السيد بالعبيد . وكرهية الأثام في العرب آتية من خوف عار السبي او ان هذا الخوف من أسبابها .

ومن الروايات المتواترة يفهم أن كثيراً من الرقيق عند العرب كانوا سودا البشرية ، ويدل هذا على انه كان يجاب جلباً ايضاً من بلاد السودان ؛ او ان جيلاً بشرياً أسود كان هاجر او جلب في الازمنة السابقة فلما وتكاثر وظل طابع العبودية ثابتاً عليه .

كذلك فان الروايات قد تواترت على ان من هذا الرقيق من كان حبشياً

او رومياً او قبطياً او كلدانياً مما يدل على ان تجار الحجاز كانوا يشترون من اسواق البلاد التي يصلون اليها في رحلاتهم التجارية افراداً من الرقيق لينتفعوا بهم شقي الانتفاعات. ونرجح ان من هؤلاء من كان صاحب مهنة او حذق في الخدمة ، ومنهم من كان يكتب ويقرأ ايضاً .

- ١٦ -

هذا ، وفي القرآن آيات عديدة تشير الى فك الرقاب - أي تحرير العبيد - والحث عليه ، والتقرب الى الله بذلك ، واتخاذ كفاية عن بعض الذنوب كما ترى في الامثلة التالية .

١ - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ... البقرة ١٧٧

٢ - ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبته مؤمنة ودية مسامة الى اهله ... النساء ٩٢

٣ - ولكن يؤخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبته ... المائدة ٨٩

٤ - إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ... التوبة ٦٠

٥ - والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبته من قبل ان يتاسا ... المجادلة ٣

٥ - فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبته ... البقرة ١١ - ١٣

فهذه الآيات وإن كانت تتضمن تشريعاً للمسلمين وهدفاً من اهداف الدعوة الاسلامية في الرفق بالرقيق وعمقه فاننا لا نتجاوز اذا استأنسنا بها لتقول إن تحرير الرقيق لم يكن شيئاً غير معروف قبيل البعثة ؛ بل ان آيات البلد خاصة جاءت بصيغة تلهم بقوة أن فك الرقاب من المكرمات المطلوبة ، عدا ان آيات البقرة (١٧٧) والتوبة (٦٠) تلهم ان هذا مما كان مألوفاً . على ان الروايات العربية

المتواترة تفيد أن هذا كان واقعياً ، وأنه كان يعد من المكرمات التي يتسابق إليها أولو الأريحية والبروات ؛ وان الناس كان يندرون فإله شكر الله أو آلهم (١) . وقد باشر النبي (ص) هذه المكرمة بنفسه قبل البعثة ، إذ استوهب زيداً بن حارثة (رض) مملوك السيد خديجة (رض) وأعتقه وتبناه (٢) . كذلك فإن ابابكر (رض) قد اشترى بعض أرقاء المسلمين من مالكمهم الذين كانوا يعذبونهم واعتقهم وكان ذلك في أوائل الدعوة الإسلامية (٣) . وقد كان العتيق يحتفظ بولائه لمعتقه ، وإذا مات بدون وارث ورثه ، وإذا مات وله ورثة كان له نصيب من إرثه . وقد انتقل هذا التقليد إلى الإسلام وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي بولاء العتاقة أو مولى العتاقة (٤) .



-
- (١) اسد الغابة ج ٢ ص ١٦٨
(٢) اسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥
(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٩٠
(٤) تفسير الخازن وغيره